المولد

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء البلية محمد

الصورة الشعرية ومجالات الحياة عند زهير بن أبي سلمى

بقلم الدكتور

عبد القادر الرباعي

جامعة اليرموك ـ اربد ـ الاردن

تمهيـــــد

الصورة الشعريـة واسطة التحـام الانسـان مـع الكون لتشكيـل نوع من الوجـود الانسـاني الخاص ونظرا لان علاقات متشابكة تتدخل في تركيب الصورة عند الشاعر فان الاهتمام بدراستها للكشف عن هذه العلاقات غدا من الموضوعات الهامة التـي يعنى به النقد الحديث[1] .

وانطلاقا من هذا الاهتمام جاءت دراستي هـذه للصورة في شعر زهير وذلك لما لهذا الشاعر من مكانة اجتماعية وفنية هامة في عصره .

ومجالات الحياة التي اعنيها هنا هي مجموع العلاقات القائمة او المحتملة بين الانسان والمظاهر الوجودية كلها . وهي تتوزع عادة على انواع خمسة هي :

١ ـ الانسان .
٢ ـ الحياة اليومية .
٣ ـ الطبيعة .
٤ ـ الحيوان .
٥ ـ الثقافـة .

ولكن توزيع صور الشعراء على هذه المجالات يختلف من شاعر لاخر مثل هذا التوزيع يرتبط بعدة عوامل شخصية منها اهتمامات كل شاعر والمؤثرات الخاصة التي توجه هذه الاهتمامات . اما زهير بن ابي سلمى الشاعر الجاهلي فان صوره تشير الى انه كان يولي « الحياة اليومية » جل اهتمامه اذ نراه يعود اليها كثيرا حتى تجمعت في ديوانه اعداد كبيرة منها ، ويلي ذلك اهتمامه بالانسان . اما الحيوان فيأتي اهتمامه به في المرتبة التالية ، تليه الطبيعة فالثقافة .

ان مثل هذا الترتيب في توزيع الاهتمامات عند الشاعر لم يأت اعتباطا او مصادفة ولكنه مشكل من ارتباطات داخلية للأنا الشاعرة بالاخر ، (الكون او الحياة والوجود) .

ولهذا نعده ترتيبا ذا طبيعة خاصة بزهير قد لا يتفق معه فيه شاعر اخر من الشعراء الجاهليين المشهورين[2] . ولما كان هذا الترتيب مفروضا بذوق خاص وطراز حياة فكرية وشعورية خاصة فانه من الطبيعي ان لا يتفق فيه زهير مع امرىء القيس او الاعشى او طرفة او النابغة او غيرهم لان لكل من هؤلاء انماطا من الذوق والتفكير والشعور مختلفة عن نمطه .

ولعل هذا الاختلاف والتفرد يمنح دراسة الصورة عند زهير قدرا كبيرا من الاهمية لانه يكشف التميز الفردي الذي كان للشـاعر ، خاصـة وان الاختلاف في الاهتمامات بموضوعات الصورة (مجالاتها) او المواد الحياتية التي تتشكل منها يستدعي اختلافا في البناء الشعري وبالتالي اختلافا في الظواهر الفنية الناتجة عن ذلك .

هذا ومن المؤكد ايضا ان اي اختلاف في توزيع

---

(١) انظر بحث « الصورة الفنية في النقد الاوربي / محاولة لتطبيقها على شعرنا القديم » لكاتب هذا البحث في مجلة « المعرفة » دمشق عدد ١٠٤ شباط ١٩٧٩م . ص ٢٧ ـ ٧٠ .

(٢) انظر كتاب « الصورة الفنية في الشـعر الجاهلي » للدكتور نصرت عبدالرحمن مكتبة الاقصى عمان ١٩٧٦ ففيه تفصيل حول اهتمامات ثمانية من اعلام الشعر ص ٨٨ ـ ١٠٢ .

مواد الموضوع الصوري الواحد عند الشعراء بل عند الشاعر الواحد ينتج اختلافا مماثلا في النواحي الفنية التي يوحي بها ذلك الموضوع او مواده .

لهذا سنحاول دراسة موضوعات الصورة او مجالاتها الحياتية عند زهير مراعين ترتيبها في ذهنه ومبرزين القضايا الذاتية المتعلقة بها قاصدين الى تحليل العناصر التجريبية التي تشكل القاعدة الاساسية التي ارتفع فوقها في زهير في كل شعره ، وهذا لا يعني الخوض بكل المسائل الفكرية والشعورية والجمالية التي يثيرها شعر زهير فذلك امر لا ندعي قدرتنا الاحاطة فيه ضمن هذا البحث الذي يجب ان يظل صوت الحياة ومظاهرها خيطه الناظم . ثم ان تفصيل تلك القضايا يحتاج الى ابحاث اخرى متعددة يحاول كاتب هذا البحث متابعة دراستها واخراجها في كتاب يضمها جميعا ، لكننا هنا معنيون فقط بدراسة صورة الشاعر والمجالات الحياتية المذكورة آنفا .

- ١ -

الحياة اليومية

تبين لي من احصاء صور زهير ان الحياة اليومية تشغل حيزا كبيرا من اهتمام هذا الشاعر فهي تشكل نسبة ٣٥٪ من مجموع صوره .

والحياة اليومية بالرغم من بساطتها في العصر الجاهلي متعددة الجوانب والقضايا ، ولقد افرزت طبيعة الحياة التي كان يعيشها الناس ظواهر فرضت نفسها على الشاعر فاهتم بها واتخذ منها مادة صوره لقد اهتم زهير كثيرا بوصف الظعائن والرحلات التي تخيل انه يقوم فيها او اعاد شعرا بعد ان قام بها فعلا ، ثم الاطلال ومشاهد الصيد والحروب والورد والسقاية والشباب وغير ذلك من امور حياتية خبرها كثيره من الناس في عصره القديم .

ويجب التنبيه الى انه يتفرد بالحديث عن هذه الامور ولكن نمطه في تناول كل واحد منها يجب ان يختلف ــ كما قلنا سابقا ــ عن نمط كل شاعر جاهلي تناولها ، لقد كانت بالنسبة لهم جميعا مواد ساكنة ثم جاء كل منهم يشكل منها الوانا تتساوق وتجاربه الخاصة في الحياة .

× × ×

اما الاطلال فبالرغم من انه لم يلتزم وصفها في كل قصائده الا انه توقف عند وصفها في كثير من هذه القصائد وكان في وصفه لها يحرص على اثارة قضايا معينة :

لقد اهتم بنسبة هذه الاطلال الى فتيات مختلفات الاسماء فقد ذكر اطلال « ام أوفى » و « فاطمة » و « سلمى » و « ليلى » و « ام معبد »(٢) .

ولكنه ايضا وصف اطلالا دون ان ينسبها الى فتاة ما وان كان مثل هذا الوصف قليلا(٤) . والمراة التي قرنت بالاطلال اختلف في وظيفتها الدلالية وفي علاقتها بالشاعر ، واعتقد ان الخوض في ذلك سيؤدي الى مزيد من الاختلافات التي لن نتوصل فيها الى قول فصل ، لكن الاجدى من هذا هو التفتيش عن العلاقة الداخلية بين المراة والاطلال من خلال وظيفة كل منهما في الحياة الجاهلية . فالمراة قضية والاطلال قضية ، وبين القضيتين علاقة ما اهمت الانسان الجاهلي ثم جاء الشعراء يحسون ذلك كله ويبرزونه امام ذلك الانسان مقرونا بايحاء خاص يريده كل منهم ان يستقر في الضمير ويفعل في حركة المجتمع كله فعلا يوجه القيم والاهتمامات فيه(٥) .

وزهير واحد من الشعراء الذين كانت المراة تشكل في اطلاله معنى كبيرا ، ولم يكن ذكرها لمجرد انها حبيبة او زوجة فحسب ولكن لانها قضية هامة جدا لها وظيفة كبرى في مسالة الدلالة الشعرية عنده ايضا .

واهتم الى جانب هذا بتحديد اماكن تلك الاطلال ، فحومانة الدراج والمتثلم والرقمتان والجواء ويمن والقوادم والحساء وذوهاش وميث عريتنات وذروة والجناب وقنة الحجر ومندفع النحائب والتعانيق والثقل والقفين والركن والرس والرسيس والغمران ورامة والبقيع ونهمد وشرقي القنان وصحراء اللبين وذو الهضاب(٦) كلها اماكن اولاها اهتمامه . ويعجب الانسان من ولع الشاعر بذكر هذه الاماكن اذ نقف على شعر له رصت الاماكن في بعض ابياته رصا كبيرا قال مثلا(٧) .

---

(٢) شرح ديوان زهير بن ابي سلمى . صنعة ابي العباس احمد بن يحيى الشيباني ثعلب ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤ ، (ص ٤ ، ٥٦) ، (٩٦ ، ١٢٤ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢) ، (١١٦ ، ١٤٥) ، (٢٠٦ ، ٢١٩) .

(٤) انظر الديوان ص ٨٦ ، ٢١٩ .

(٥) انظر في تفسيرات « اللحظة الطللية » كتاب الاستاذ يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي . ١٩٧٥ ص ١١٥ ــ ١٧٠ .

(٦) الديوان ص ٤ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٤٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٩٢ .

(٧) الديوان ١٢٦ ــ ١٢٧ .

لمن طلل كالوحي عاف منازله
عفا الرس منه فالرسيس فعاقله
فقف فصارات فاكناف منعج
فشرقي سلمى حوضه فأجاوله
فهضب نرقد فالطوى فتشاوق
فوادي القنان حزنه فمداخله

يقول احد المستشرقين : ان ذكر الاماكن في الشعر الجاهلي ليس له من قيمه سوى انه يحدد الانحاء التي كان الشاعر وقومه يقطنونها(٨) .

وعلى الرغم من اننا قد نتفق مع القول الذي يجعل الاماكن التي يذكرها الشاعر خاصة بالموطن الذي سكنه او خبره الا اننا نشك ان تكون تلك هي القيمة الوحيدة لذكرها في الشعر الجاهلي وانما نعتقد انه امر يجب ان يدفعنا للتفكير في قيم اكثر واقعية واصالة فمما لا شك ان اصرار الشاعر على ذكر تلك الاماكن التي سكنها انما هو من شدة تعلقه بها وحبه اياها بصفتها الوطن الذي ينتمي اليها . وهذا يباعد بين الشعر وتعداد الاماكن لمجرد التعداد فالمكان ظرف الحدث الذاتي والاجتماعي وحين نتذكر هذا الحدث الذي يرتبط بنوع ما في النفس والوجدان لابد لنا من ان نتذكر مكانه وزمانه ولهذا يغدو المكان مهما في دلالته الانسانية بشكل عام .

ويهتم في وصف الاطلال بالزمان ايضا ، فقد يحدد المسافة الزمنية بين رؤيته الاولى للمكان ورؤيته الثانية كما في قوله(٩) .

وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الدار بعد توهم

وقوله(١٠)

لسلمى بشرقي القنان منازل
ورسم بصحراء اللبين حائل
عفا عام حلت صيفه وربيعه
وعام وعام يتبع العام قابل
تحمل منها اهلها وخلت لها
سنون فمنها مسنبين وماثل

وهو يقف على حدى الزمن سابقا ولاحقا هنا لانه منفعل بالحدث الذي كان بين هذين الحدين ، لقد غير هذا الحدث صفة المكان وبدلها الى النقيض تماما : كان في الماضي حيا يملؤه نشاط ساكنيه . اما في الحاضر فقد اصبح ميتا لانعدام الحياة والنشاط فيه ، اليست هذه اللحظة لحظة اعتبار ؟

وقد ينصرف الى تحديد الوقت الذي يقف فيه بها ، اذ قد يكون نهارا كما في قوله(١١) .

وقفت في راد الضحاء مطيني
اسائل اعلاما ببيداء تردد

وقد يكون مساء كما في قوله (١٢) .

فقلت والدار احيانا يشط بها
صرف الامير على من كان ذا شجن
لصاحبي وقد زال النهار بنا
هل تؤنسان ببطن الجو من ظعن

ويتحد الزمان في المثالين السابقين على اشارة واحدة هي المسافة الزمنية الطويلة الصعبة (مبتدئة بالضحى منتهية بالمساء في صحراء شديدة الحرارة) وقفها في المكان يتملاه ويستعيد ذكرياته فيه . ولا شك ان وراء هذا الوقوف الطويل شعورا عميقا يدفع صاحبه الى تحمل الصعب .

وهكذا يغدو للزمان وظيفة دلالية خاصة بالتجربة الانسانية التي كان يمر بها الشاعر في عصره ، وهي ترفد التجربة الخاصة التي ينقلها المكان كما وضحنا سابقا ؛ فاذا كان المكان ظرفا ثابتا يتلقى تحول الحال ويسجل مظاهره فان الزمان ظرف متحرك ينقل الابعاد المختلفة والمتضادة لهذا الحدث المتحول .

ولعل التجربة الشعورية التي كان يحياها وهو يقف في الاطلال هي التي املت عليه تدقيق النظر فيها حتى يأتي على وصف اشيائها البارزة كالاثا في يقف في الاطلال هي التي املت عليه تدقيق النظر والنؤى والرماد الهامد ، قال مثلا(١٣) .

اربت بها الارواح كل عشية
فلم يبق الا آل خيم منضد
وغير ثلاث كالحمام خوالد
وهاب محيل هامد متلبد

ان علينا ونحن ننظر في وصفه هذا ان نتوقف

---

(٨) شارل ڤيال : مقدمة المفضليات ، ص ١٨ .
(٩) الديوان ص ٢ .
(١٠) الديوان ص ٢٩٢ وما بعدها .
(١١) الديوان ص ٢٢٠ .
(١٢) الديوان ص ١١٧ وما بعدها .
(١٣) الديوان ص ٢١٩ وانظر ايضا ص ٧ .

عند العلاقة بين الانا في ــ والحمام الذي شبهها به فمثل هذه الصورة يلتقي حداها عند نقطة نفسية خاصة . ثم علينا ان نفكر بالمقابل بالهاب (الرماد) والصفات الثلاث التي تتابعت له : محيل ؛ هامد ؛ متلبد . فالحدود الشعورية للشاعر امتدت لجلب هذه العناصر التي قد لا تكون متوائمة دائما .. وكان يشغل وهو يصف الاطلال ايضا بذكر الرياح والامطار التي عفت على معالمها(١٤) .

قف بالـديار التـي لم يعفهـا القـــدم
بلـــى وغيرهـــا الارواح والديـــم

وليس لذكر الرياح والديم ارتباط اختلاف الجو والمناخ فقط ، ولكنه يمتد الى تأثير هـــذا الاختلاف على حياة الناس واختلاف المشاعر والافعال المترتبة على اختلاف المناخ الطبيعي ومن هنا يغدو ارتباط هذه العوامل بالنفس من اشد الامور حاجة للتفسير والتوضيح في مسألة « الاطلال » هذه . وقد اهمته كثيرا حياة الحيوان الذي اتخـــذ من الاطلال مسرحا له وملعبا ، ففي الاطلال كان يراقب مشية الارام والعين ونهوض اطلائهن من كل مكان فيها(١٥) . كما كان يراقب الثيران الوحشية ويعجب بالوانها المختلفة وهيئتها التي حولها المكان الى حال تشبه معها الابل الكريمة(١٦) .

كـــأن اوابـــد الثـــيران فيهـــا
هجـــائن في مغابنهـــا الطـــلاء

ان الحرص على ايجاد هذه الحياة الحيوانية المتنامية وسط مظاهر العدم الانساني له عمق كبير اذا ما توبع استقصاؤه وربطه بموضوعات القصائد وفحواها العام .

ومن ارتباط الاطلال بتجربة الشاعر مقارنته اياها بالكتابة فقد كرر تشبيهها بالوحي الذي كان يعني الكتاب او المكتوب في صور عدة(١٧) ، كما حدد في صورة واحدة فقط وسيلة الكتابة وهو الحجر وقرنها الى الوحي ايضا فقال(١٨) .

لمـن الـديار غشيتهـا بالفـدفـد
كالوحـــي في حجـــر المسيل المخلـد

وقد يكون لكلمة الوحي دلالة هامة جدا على عقلية هذا الشاعر والناس في عصره البدائي الذي كان يؤمن بعالم الغيب والخيال كثيرا .

وقد اكثر من معادلة الاطلال بالوشم في يد الانسان ايضا . قال عن الطلل(١٩)

يلـــوح كـأنـه كفـــا فتـــــاة
ترجـــع في معاصمهـــا الوشـــوم

والوشم ايضا له صلة بالعقلية الجاهلية وقد ارتبط عند البدائيين عامة بدلالات سحرية ودينية(٢٠) ويجب ان لا يغيب ذلك كله عن ادراكنا ونحن ندرس الصور التي تقرن الاطلال به ، فوظيفته الاجتماعية تمنح الاطلال المشبهة به مزية دلالية خاصة تتكشف ابعادها حتما حينما ينظر اليها من خلال المعنـــى المتكامل للقصيدة ككل .

هذه صورة للاطلال التي كان يقف عليهـــا ويسائلها عن اهلها الظاعنين عنها وعندما كان ييأس من اجابتها يتركها مرتحلا عنها .

فلمـــــا رايـت انهـا لا تجيبنـــي
نهضت الى وجنـــاء كالفحـل جلمـد(٢١)

× × ×

والشاعر في الظعائن ، كما في الاطلال ، يترجم واقع الحياة التي كان الجاهليون يعيشونه لقد كان الناس يجتمعون الى بعضهم بعضا فيتعارفـــون ويتحابون فيتعلق الفتى من هذا البيت بفتاة من ذلك البيت ، ثم ينضب الماء ويجف الكلاء الذي اجتمعوا عليه فيرتحلون كل الى جهة اخرى بقنش له عن ماء جديد وكلأ جديد فيفترق الاحبه ويتباعد الشـــمل لكن الذكريات تبقى تلح على اصحابها . من هنا ياتي وصف الاطلال ومن هنا ياتي وصف الظعائن او ارتحال الاحبه وملاحقتهم بالخيال ان لم يكن في الواقع ؟(٢٢) .

ســالت بهـم قـرقـرى برك بايمنهـــم
فالعاليـات وعـن ايســارهم خيـــم

---

(١٤) الديوان ١٤٥ وانظر ايضا ص ٥٦ ، ٨٧ .
(١٥) الديوان ص ٥ .
(١٦) الديوان ص ٥٨ والهجائن : ابل بيض كرام . والمغابن جمع مغبن وهو ما خفي من جسد الثور . والطلاء : القطران .
(١٧) الديوان ص ١٢٦ ، ١٤٦ .
(١٨) الديوان ص ٢٦٨ .
(١٩) الديوان ص ٢٠٧ وانظر ايضا ص ٥ ، ٢٨٢ .
(٢٠) Encyclopaedia Britannica Vol. 21 PP. 718-719 (Article: Tatooing).
(٢١) الديوان ص ٢٢٠ .
(٢٢) الديوان ص ١٤٧ ، خيم : جبل . باب القريتين : في طريق مكة . الهمالج من الابل ها هنا والخيل مشدودة معها . قلم : جبل وقيل : موضع .

عهـــدى بهـم يوم باب القريتين وقـــد
زال الهماليج بالفرســـان واللجـــــم
فاســتبدلت بعـــدنا دارا يمـــانيـــــة
ترعـــى الخريف فادنى دارهـــا ظلـــم

عهد حبيبته تسكن نواحي مكه ، لكنه فوجيء بها تستبدل بذلك دارا ناحية اليمن ، انها مع اهلها تطلب النفع اني وجد .

فلزهير كما لاكثر الشعراء الجاهليين اهتمام كبير بالظعائن . يأتي منازل احبائه فيجدها خاليـــة فيتخيلهم ظاعنين عنها ثم يسائل اصحابه ان كانوا يرون على البعد ظعائن من يحب عله يلحق بهـــا سريعا .

تبصـر خليلـــي هـــل ترى من ظعـــائن
تحملن بالعلياء من فـوق جرثـــم[٢٣]

واعتاد في وصفه للظعائن ان يتتبع المواضع التي قطعتها وان يدقق في ذلك تدقيقا شديدا[٢٤] ، وقد يحدد زمن ارتحالهم[٢٥] ويعيد الى الاسماع غناء حداتهم[٢٦] كما قد يصف مشاعره ازاء هذا المشهد المكرر في خياله[٢٧] .

مـا زلـت ارمقهـــم حتـى اذا هبطت
ايدي الركـــاب بهم من راكس فلقـــا
دانيـــة مـن شـــروري اوقفـــا ادم
يسعى الحـداة على آثارهـــم حزقـــا
كـان عينـــي في غـــربي مقتلـــة
مـن النواضح تسـقي جنـة سـحقـــا

ظل الشاعر الحزين يراقب حبيبته وهو يصعد ويهبط على اصوات الحداة حتى اذا ما ابتعد انساح الدمع من عينيه غزيرا كالماء الناضح من دلـــوين ضخمين تحملهما ناقة مذللة واذا كان حزينا لفراق احبته الظاعنين هنا فانه قد يبدي شعورا مغايرا في مواقف اخرى . قال مثلا[٢٨] :

(٢٣) الديوان ص ٩ .
(٢٤) الديوان ص ٩ ـ ١٣ ، ١١٦ ـ ١١٩ .
(٢٥) نفسه ص ١٠ .
(٢٦) نفسه ص ٢٧ ، ١٦٧ .
(٢٧) نفسه ص ٢٧ وما بعدها . راكن : موضع . الفلق : المكان بين ربوتين . الحزق : الجماعات .
(٢٨) نفسه ص ٢٩٤ وما بعدها . والاشاء : النخل . نشزن : ارتفعن جماواتهن : بريد ارضا .

تبصـر خليلـــي هل ترى مـن ظعـــائن
كمـا زال في الصبح الاشـــاء الحـوامل
نشزن من الدهناء يقطعن وســـطهـــا
شـــقائق رمـــل بينهـن خمائـــــل
فلما بدت ســاق الجـواء وصـــــارة
وفـرش وحمّـــا واتهـــن القوابـــل
طربـت وقال القلب هـل دون اهلهـــا
لمـن جـــاورت الاليـــــال قلائـــل

لقد طرب هنا لانه اصبح قريبا من تلك الظعائن بعد ما لحقها سريعا حتى لم يبق بينه وبين ارضها سوى ليال قليلة كما قال . لقد فرض الحزن في المشهد الاول فراق الاحبة ويأس الشاعر من لقائهم بعد ما راقبهم وهم يبتعدون كثيرا . لكن الوضع في المشهد الثاني اختلف حيث لحق بهم فيه ، وعندما اقترب من ديارهم هلل قلبه فرحا . من هنا حل الامل عنده محل اليأس واخذ الفرح مكان الحزن .

هذان موقفان متضادان يجب ان يكـــونا مفروضـين من داخـــل الشاعـــر استجابـــة للظروف والاحوال التي كانت قائمة وقتئـذ[٢٩] . ويهمنا التاكيد على ان اغلب قصائد زهير يكـــون وصف الظعائن فيها منبئا بالاتي المأمول على عكس الحال في وصف الاطلال . وهذا ربما دلنا على اتجاه عام في موقف الشاعر ازاء الحياة والموت لان الظعائن ـ كالاطلال ـ لا يمكن ان نفهمها في الشعر على انها مجرد سرد وضع من اوضاع الناس في مجتمع له طريقة خاصة في المعاش . ان هذا الوضع مـــادة حياتية استغلته شاعرية الشعراء ووجهته جهـــة ذاتية خاصة ، اذ لو كان وصف الظعائن مجرد سرد وضعي خاص لما كان له موضع في مجال الصورة ـ وهو موضوع هذا البحث ـ لان الصورة تركيبة معقدة يتدخل في تاليفها عنصران هامان احدهمـــا ظاهري يقوم في الحواس المتخيلة والثاني باطني يقوم في النفس وموطن التجربة . ويكون الاول مادة معادلا للثاني وعلى قدر انفعاله . فالظعائن ـ كالاطـــلال ايضا ـ تشكل المظهر الخارجي لمضمر داخلي بحيث يؤلفان معا الصورة الكبرى التي حاولنا نقل اتجاهها العام عند زهير .

× × ×

(٢٩) للزمن تاثير كبير في توجيه الحدث والمشاعر فالظعن في المشهد الاول كان يتم حاضـــرا امام الشاعر وبارادة الظاعنين فالحاق بهم لن يجديه شيئـا امـا الظعن في الثانية فكان في غيابه وهو فرح لانه يتبعهم بل يقترب من ديارهم الجديدة .

والرحلة في العصر الجاهلي منهج حياة ، اما عند الشعراء عامة وعند شاعرنا خاصة فوضع شعري يرتبط بشكل تاليفي تآلفي مع الظعائن والاطلال . لقد قلنا في حديثنا عن الاطلال ان الشاعر كان يقف فيها مناجيا سائلا وحينما لا تجيبه يتركها مرتحلا .

ورحلته اما للحاق باحبته كما في هذه الصورة(٢٠) :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا
وزودوك اشتياقا اية سلكوا
هل تلحقني واصحابي بهم قلص
يزجي اوائلها التبغيل والرتك

واما للانتقال الى من يقصد مدحه كما في قوله يمدح سنان بن حارثة المرى(٢١) .

فزادك انعما وخلاك ذم
اذا ادنيت رحلي من سنان

واهم ما يجب الالتفات اليه عند هذا الشاعر في رحلته :

- الدافع النفسي للرحلة
- واداة الرحلة
- وطبيعة المكان المرتحل فيه
- وابعاد الزمن الذي تمتد الرحلة فيه .

اما الدافع الذي كان يحرك الشاعر دائما للارتحال او لتغيير المكان فالهم كما عبّر عن ذلك اكثر من مرة . قال في موضع(٢٢) :

دعها وسل الهم عنك بجسرة
تنجو نجاء الاخدريّ المفرد

وقال في موضع آخر(٢٢) :

وهم قد نفيت بارحبي
هجان اللون من سرّ هجان

ولهذا يجب ان نفكر في العلاقة بين الاطلال ــ والظعائن ــ والرحلة ــ والهم لنوجد تفسيرا معقولا للتركيبة المختلفة العناصر التي تجتمع معا في قصيدة واحدة ذات موضوع واحد متكامل متحد .

واما اداة الشاعر للرحلة فناقة قوية نشيطة سريعة لا يحتاج راكبها الى اخراج سوطه ولهذا كان يعادل بينها وبين حيوانات اخرى عرفت فيها مثل هذه الصفات فهي تشبه في القوة الفحل الشديد والثور النشيط(٢٤) . وهي تماثل في السرعة النعامة التي (اذا هيجتها اندفعت) او الدلو الذي ان انقطع حبله هوى في البئر سريعا ، او حمار الوحش الذي طردته الرماة(٢٥) .

وهي في صلابتها كالجبل من الرمل او القصر العظيم الذي شيده بناة ماهرون(٢٦) وهذا نموذج لهذه الناقة .

جمالية لم يبق سيرى ورحلتي
على ظهرها من نيّها غير محفد
متى ما اكلفها مفازة منهل
فتستعف او تنهك اليه فتجهد
ترده ولما يخرج السوط شاوها
مروح جنوح الليل ناجية الفد
كهمك ان تجهد تجدها نجيحة
صبورا وان تسترخ عنها تزيد
وتنضح ذفراها بجون كانه
عصيم كحيل في المراجل معقد(٢٧)

لقد اختار لرحلته ناقة قوية قوة الفحل الشديد ، صابرة على المشاق حتى اني سيرها الطويل الشاق في رحلة الشاعر على شحمها ، وهي تتعب نفسها كثيرا حتى تقطع به مفازه قاسية فتوصله ماءها دون ان تضطره لاخراج سوطه .

---

(٢٠) الديوان ص ١٦٤ ، ١٦٨ والخليط : المجاور لك في الدار . والتبغيل والرتك : ضربان من السير .
(٢١) الديوان ص ٣٥٧ والخطاب موجه لناقته .
(٢٢) الديوان ص ٢٧ . الجسره : الناقة السبطة الطويلة. الاخدري : هي نسبة الى اخدر وهو فرس معروف النسب . والمفرد : الفرد .
(٢٣) الديوان ص ٢٥٦ وانظر ايضا ص ٢٥٧ والارحبي : فحل منسوب الى ارحب (بطن من همدان) والهجان: الناقة الخالصة اللون والعتق .
(٢٤) الديوان ص ٢٢٠ ، ٢٦٤ .
(٢٥) الديوان ص ١٦٩ ، ٦٧ ، ٢٧٢ .
(٢٦) الديوان ص ٣٧٠ ، ٢٧١ .
(٢٧) الديوان ص ٢٢٠ ــ ٢٢٥ جمالية : خلقتها كخلقة الجمل . ونيها : شحمها ومعقد : اصل السنام . مفازة منهل : اي مفازة لها ماء . تستعف : يؤخذ ما عندها علوا . وشاوها : عدوها . ومروح : من الرح. وجنوح : تجنح في سيرها اي تميل من النشاط . وناجية : اي تنجو .
كهمك : اى كما تريد . ونجيحة : سريعة . الذفريان: المظمان البارزان خلف اذن البعير . الجون : الاسود. والعصيم : القران . والكحيل : دقيق القطران .

وهكذا تفعل الناقة ما يطلب منها باتقان . انها نشيطة تنجي الانسان بايصاله هدفه صبور على التعب لا يعيقها العرق المتصبب من جوانبها عن ان تتزيد في سيرها حتى وان لم يطلب منها ذلك .

هذا وقد جعل الشاعر ناقته هذه تعمل في ظروف قاسية ليكون ادعى لتمجيد فعلها وفعله معا. فقد كان يتعمد ان يختار لرحلته مكانا صعبا وزمانا مرهقا .

فالمكان ارض غليظة كثيرة الحصى ، بعيدة الغور تتشابه فيها المسالك . واسعة تتمزق فيها الرياح وتتساقط فيها النوق ارهاقا الا ناقته ، فهي الاقدر على اجتيازها وقهر صعابها(٣٨) . او ارض قفراء غير واضحة المعالم والطرق لا يجرؤ على اجتيازها الاشجاع يصطحب معه من يؤازره ويشيعه قال :

وتنوفة عمياء لا يجتازها
الا المشيع ذو الفؤاد الهادي
قفر هجمت بها ولست بنائم
وذراع ملقية الجران وسادى
وعرفت ان ليست بدار تثيبة
فكصفقة بالكف كان رقادى
فوقعت بين قتود عنس ضامر
لحاظه طفل العشي سناد(٣٩)

انها ارض لا تصلح للمقام طويلا لذا اراح جسده قليلا ثم لجا الى ناقته يضع نفسه فوق قتودها لتسرع به نحو غايته .

واما زمان الرحلة فيوم هجير لافح الحرارة اوليل مرعب او وقت مطر غزير(٤٠) . قال مثلا

وخرق يعج العود ان يستبينه
اذا اورد المجهولة القوم اصدرا
ترى بحفافية الرذايا ومتنه
قياما يقطعن الصريف المفترا

(٣٨) الديوان ص ٦٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٩ ، ٢٩٦ ، ٢٦١ .
(٣٩) الديوان ص ٢٢٠ وما بعدها . والتنوفة : القفر . والمشيع ، الشجاع . والهادى : العالم بمسالك الطرق . والجران : باطن حلق الناقة القته على الارض اعياء .
تثيبه : اقامة . والقتود : احناء الرحل لحاظة : تلحظ يمينا وشمالا . طفل العشي : قبيل العشي .
(٤٠) الديوان ص ٣٦٩ ، ٢٣٢ ، ٢١٦ .

تركت به من آخر الليل موضعي
فراشي وملقاى النقيش المشمرا(٤١)

انه يجمع في الابيات بين قسوة المكان وشدة الزمن ، فالمكان صعب المسلك ترى كثيرا من الابل مترامية فيه . والزمن آخر الليل المخيف الذي ترك فيه الشاعر فراشه وراح يعمل وناقته باخلاص وجهد كبير ليصلا الى هدفهما المطلوب .

عناصر الرحلة عند زهير اذن ـ هم نفسي يحفز صاحبه على تغير الحال والمكان . ـ وناقة قوية نشيطة وارض مجهولة صعبة التضاريس ـ وزمان قاس مخيف .

لكن النهاية كانت دائما الانتصار على كل الحواجز والوصول الى المبتغى وعند هذه النتيجة السعيدة يهون كل ارهاق لحق بالناقة وصاحبها :

هل تبلغني الى الاخيار ناجية
تخدى كوخذ ظليم خاضب زعر
في يوم دجن يوالي الشد في عجل
الى لوى حصن من خيفة المطر
حتى تحل بهم يوما وقد ذبلت
من سيرها جرة او دلجة السحر(٤٢)

ان اتجاه الشاعر في وصف رحلاته والوصول الى النتيجة السابقة ليدفعنا الى التفكير بموقفه من الحياة : قيمتها وقيمه العمل والارادة والايمان بالنفس ونبل المقصد فيها . اننا ان مددنا فكرنا الى هذه الاجواء الخلفية للمظاهر الشكلية التي لا تتعدى وسائل حياتية مخبورة ومعلومة لسرنا على الطريق الصائب في فهم الابعاد الحياتية والجمالية لمثل هذه الصور والمشاهد التي افرزتها رحلة الشاعر الموصوفة هنا وهناك في شعره ، خاصة اذا حرصنا على ربط كل صورة او مشهد بالاجواء العامة المتحدة على اطار روحي خاص ضمن القصيدة بجميع

(٤١) الديوان ص ٢٦٢ . وخرق: يقال طريق يخرق المفازة، ويقال : بل هو الارض الواسعة تتخرق فيها الرياح . والعود : البعير المسن . وقوله : اصدار : اي هذا الطريق له مدخل ومخرج . حفافاه : جانباه .
والرذايا : الابل الساقطة : والصريف : اذا ضجر صرف نيابه . والمفتر : الضيف . والنقيش : المنقوش
(٤٢) الديوان ص ٣١٦ وناجية : سريعة . ونخدى من الخدى وهو ضرب من السير السريع وظليم : نعام وزعر : نشيط . ويوم دجن : يوم مطر . وحضن : جبل . واللوى : ما التوى من الرمل . ودالجة : سير آخر الليل .

عناصرها . عند ذلك فقط تتجاوز الاقوال التي توحي بان الاتجاه العام للرحلة عند الشعراء والذي يتشابه في بعض عناصره لم يكن اكثر من افتعال رديء ينبيء عن انطفاء الشوق او موته(٤٣) .

ان امتداد الرحلة الى آفاق الحياة وربط عناصرها بعلاقات موافقة او مخالفة لعناصر التجربة الانسانية التي توحي بها لهو ارتفاع بالشعر الى عالم السمو والشمول الذي لا يقتصر على حياة الجزء دون حياة الكل او ممارسات الفرد دون المجموع .

× × ×

اما مشاهد الصيد فتقوم عند زهير على اساس صراع عنيف بين الثور الوحشي وكلاب الصائدين او بين قطاة تقصد ماء تشربه وصقر يراقبها من بعيد حتى اذا اقتربت انقض يبتغي قتلها وافتراسها بالطريدة : الثور او القطاة .

اما طريقته في نقل المشهد فتبدا بوصف الثور او القطاة وصفا متانيا تظهر فيه قوة الاول وسرعة الثانية . ثم ينتقل الى الصائدين وكلابهم او الصقر في مكمنه حتى يصل الى النهاية التي يجعل فيها النصرة للثور والنجاة للقطاة ، لكنه يركز على ان كلا منهما قد دفع قدرا كبيرا من جهده وجهاده ثمنا لذلك النصر ولتلك النجاة . وهاك نموذجا من صراع الثور والكلاب . قال من قصيدة مدحية :

كان كورى وانساني وميثرتي
كموتهن مشبّا ناشطا لهقا
رعى بغيث لاوراك فناصفة
من الشتاء فلما شاوه نفقا
عشرا وخمسا فقد طابت مراتعه
من الربيع ولم يبدن وقد رهقا
فصار منها على شيم يؤم بها
جنبي عماية فالركاء فالمعقا
فأدركته سماء بينها خلل
تروى الثرى وتسيل الصفصف القرقا
نبات معتصما من قرها لثقا
رش السحاب عليه الماء فاطرقا
ليلته كلها حتى اذا حسرت
عنه النجوم اضاء الصبح فانطلقا
فصبحته كلاب شدها خطف
وقانص لا ترى في فعله خرقا
حتى اذا ظن قرن الشمس غالية
وخاف من جانبيه النهز والرهقا
كرّ ففرج اولاها بنافذة
نجلاء تتبع روقيه دما دفقا(٤٤)

عندما احتاج الشاعر الى ان يوجد معادلا موضوعيا لقوة ناقته ونشاطها شبها بهذا الثور المسن المجرب لمداخل الحياة ومخارجها بعد ان تعود على الرحلة والانتقال من بلد الى اخر . لقد كان يرعى الكلأ في مكانه هادئا مطمئنا لكن قسوة الزمان والاحوال مددت مرعاة فاحتاج الى ان يطلب مرعى جديدا وخيرا جديدا فاتجه وحيدا الى مبتغاه ، الا ان الرحلة الى مثل هذا الخير ليست سهلة ميسورة، انها تحتاج منه الى صبر وجهد كبيرين . وكان يعرف تماما ما ينتظره : صبر على الظمأ طويلا وتحمل مشاق الرحلة في اماكن متباعدة وقاسية كان يصارع اثناءها الشتاء والبرد والريح والارض الوعثاء حتى اذا ما تغلب عليها جميعا وبدا يرقب الامل مع تنكس الشمس في الصباح فاجاه القدر بمصيبة اعتى واشد بلاء . كان ينتظره صائدون باسلحة قاتلة وكلاب مربية جائعة . لقد استعد للموقف الجديد الصعب وواجهه بجراة وتعقل . لم يهرب كما لم يتريث حتى تنثال عليه جميع الكلاب فيعجز عن مواجهتها جميعا ؛ لكنه واجه هجومها بهجوم مضاد قضى فيه على مقدمتها فدب الخور في مؤخرتها فتراجعت . لقد فعل ذلك بعد ان ايقن حتمية المواجهة مع الكلاب الضاربة وانه ان لم ينتهز فرصته ميت لا محالة .

ان لحظة اليأس التي مرت به حينا دفعته الى مغامرة ناجحة انقذت حياته من موت كان محققا . هذه هي الحال في مشاهد الصيد التي يؤلفها الثور مع الكلاب . ان الجراة والمجاهدة وحسن اهتبال الفرص هي التي تقود صاحبها الى النصر والخلاص من شرور اعدائه .

اما الذي كان يلعب الدور الاكبر في انقاذ القطاة

---

(٤٣) وهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية ، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ١٩٧٥ ص ٦١ .

(٤٤) الديوان ص ٤٢ ـ ٤٨ . والكور: الرحل . والأنساع: التي يشد بها الرحل . والميثرة خشية صغيرة من قطن او صوف يضعها الراكب تحته فوق الرحل : والشب : لثور المسن . واللهق : البياض . اوراك وناصفه : من بلاد تميم . رهق : سمى على منظر قد شامه وقصده . والصفصف : المستوى من الأرض . القرق : الاملس . لثقا : مبتلا . وخطف : سريع . والخرق : النزق . النهز : الجدب الرهق : اللحاق

من الصقر في مشاهد الصيد التي يؤلفانها شيء اخر ، انه القدر الذي كان ييسر للقطاة اشياء تحول بينها وبين الصقر فقد ييسر لها شجرا كثيفا يقيها

ثم استمرت الى الوادي فألجاها
منه وقد طمع الاظفار والحنك(٤٥)

او ماء يجلله النبات لتختبىء في جنباته

حتى استغاثت بماء لا رشاء له
من الاباطح في حافاته البرك
مكلل باصول النجم تنسجه
ريح خريق لضاحي مائه حبك(٤٦)

ان القطاة تجاهد للتخلص من المازق ، ولكنها لا تستطيع دائما الاعتماد على الجهاد . انها بحاجة الى ما يعنيها في الطبيعة على الخلاص ذلك لانها تواجه عدوا هو الاقوى دائما ومن الجدير بالملاحظة ان الطريدة في مشاهد الصيد عند زهير تنجو من الموت دائما الا في حالة واحدة هي تلك التي يكون الشاعر فيها صائدا . ففي نهاية مشهد صيد شارك فيه حيث كان يعطي غلاما له دروسا عملية في الصيد الى ان نجح هذا الغلام فجاة بالطريدة متخبطة بدمائها ، قال ما يشعر بذلك النصر :

فرد علينا العير من دون الفه
على رغمه يدمى نساه وفائله

واعتقد ان كل هذه المشاهد والتوجيهات المختلفة الي توجه صورها دلائل رمزية خاصة بالشاعر وموافقة من قضايا الحياة الكبرى وبخاصة قضية الصراع الانساني ثم مفهومه من الحق والباطل فالباطل خاسر في النهاية حتى لو تمتع بالقوة والكثرة .

اما الحق فمنتصر حتى لو كان وحيدا في صراعه واذا كان الشاعر ينتصر فلانه يمثل الحق المشروع .

× × ×

ويرتبط بالصراع الحرب والسلاح ، فلقد كثرت الحروب والايام في العصر الجاهلي كما نعلم ، لذلك كان لابد ان تكون موضوعا اساسيا لدى شاعرنا يعود اليه ليشكل من عناصره صورا تنبىء صاحبها منه . لقد حوت معلقته التي مجد فيها « السلام » الذي عقد بفضل هرم بن سنان والحارث بن عوف ابياتا في وصف المعركة تشعرنا بكراهية الشاعر الشديدة لها ، وقد فرضت على خياله هذه الكراهية صورا منفردة لاحتوائها عناصر تتالف على الشر فتبعث الما عميق الجذور في النفس ومن هذه الصور قوله(٤٧) :

فتعركم عرك الرحا بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم
كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغل لاهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم

انه يكره الحرب ويكره الاخرين بها ، وهو يحاول التوصل الى ذلك عن طريق استشارته لتجارتهم المريرة معها ، فحديثه عنها ليس رجما بالغيب او الظن والتخمين وانما هو بسط لحقيقة وعاها المتقاتلون جميعا : ان الحرب تطحن الناس مهما كثروا . واذا اولاها نفر اهتمامهم تصبح لديهم عادة لا يقلعون عنها . الا تبا لها من عادة تنتج شؤما والاما لا تعلم اعدادها ولا تدرك نهاياتها . ولا يظنن ان هذه هي الطبيعة الثابتة لشعوره الاساسي نحو الحرب ، ففي شعر صور اخرى توحي الرضا عن خائضيها كهذه الصورة :

اذا لقحت حرب عوان مرة
فروس تهر الناس انيابها عصل
قضاعية او اختها مضرية
يحرق في حافاتها الحطب الجزل
تجدهم على ما خيلت هم ازاءها
وان افسد المال الجماعات والازل
يحشونها بالمشرفية والقنا
وفتيان صدق لاضعاف ولا نكل(٤٨)

---

(٤٥) الديوان ص ١٧٥ . استمرت الى الوادي : الجاها الوادي بشجره منه . والحنك ها هنا : المنقار . والاظفار : المخالب .

(٤٦) الديوان ص ١٧٥ ـ ١٧٦ لا رشاء له : اي يجرى على سطح الارض . والبرك : طير . ويروى البرك : وهي الحفائر . النجم : النبات . ريح خريق: ريح شديدة . حبك : طرائق الماء .

(٤٧) الديوان ص ١٨ ـ ٢٠ الثفال جلده تكون تحت الرحا يقع عليها الدقيق . لقحت الناقة كشافا : اذا حمل عليها في اثر نتاجها وهي في دمها . فتتئم : تاتيكم باثنين فتغلل . لكم ... الخ : اي ما باتيكم من الدية اكثر مما باتيكم من غلة قرى العراق . وهذا تهكم واستهزاء .

(٤٨) الديوان ص ١٠٣ ـ ١٠٦ ولقحت : اشتدت . وعوان: قوتل فيها مرة بعد مرة. وفروس عضوض تهر الناس:

فممدوحو شاعرنا شجعان يوقدون حـــربا ضروسا اعتاد الناس كرهها . وهم صادقو العزيمة فيها لا يضعفون ولا يجبنون ، لهذا نالوا اعجاب الشاعر الذي راح يخلد صفاتهم هذه في شـــعره الباقي على الايام .

وليس غريبا ان تجتمع عاطفتا الرضاوالكراهية في نفسية واحدة ازاء الحرب ، ذلك لان موقفـــي الشاعر في قصيدتيه السابقتين مختلفان تماما .

لقد كان يطلب في الاولى تعزيز الصلـح بين قبيلتين من ارومة واحدة كانت الحروب المتوالية قد ارهقتهما وافنت كثيرا من رجالاتهما لذلك لم يكن امامه سوى تضخيم السوء الذي تاتي به الحرب ليكون هذا ادعى لكراهيتها والعزوف عن العودة اليها ثم الجنوح بدلا من ذلك الى توطين النفوس على الصلح والرضا بنتائجه .

اما في الثانية فهو يصف الفارس المثالي في زمنه انه ابن الحروب الذي لا يهابها مهما اشتدت وطالت. ومن هنا ندرك سر وجود التضاد في موقف هرم بن سنان من الحرب كما عرضه زهير ، لقد اســـتحق مدح الشاعر في معلقته لانه سعى جاهدا لاخماد نار الحرب الا انه استحق مدح الشاعر ايضا في قصيدة اخرى لانه اشعل نارها وقاد الخيل لخوضها(٤٩) .

قد جعـل المبتغـون الخـير في هـــرم
والســـائلون الـى ابـوابه طرقـــا
القـائد الخيـل منكـوبا دوابرهـــا
قـد احكمت حكمات القـــد والابقـــا

فالحرب كريهة حين تكون في غير ما يهـــوى الشاعر ، لكنها اذا جاءت موافقة لما يرغب اصبحت جميلة ونافعة . ولعل هذا يذكرنا بموقف الشاعر المشابه من الصيد . لقد اتحد موقفاه على اساس نفسي هام هو ان الشر يصبح خيرا اذا ما وظف من اجل تحقيق هذا الخير وانجازه على صورة مأمولة ومرغوب فيها .

وكان يرسم الى جانب صور الحرب صـــورا اخرى متعددة لانواع السلاح المستخدم آنذاك ، فالرمح والسيف والدرع والسهم والقوس(٥٠) كلها اسلحة حرص الشاعر ان تؤلف موضوعات لصور شتى في شعره ، وكانت كل صورة منها تنقل شعورا خاصا اراد صاحبه ان يكون متعادلا معها في حجم التمثل والتمثيل .

× × ×

واهتم الشاعر كثيرا بمسألة السقاية ومـــا يلازمها من ادوات ووسائل وافعال ، ها هو يصف مشهدا عاما لوردهم وما يتعلق به من مفاهيـــم جاهلية قديمة . الماء يمتلكه الاقوى .

اما الضعيف فمحروم منه ما لم يسمح لـــه القوى بايراده . قال :(٥١)

وخالـــي الجبـا اوردنه القـوم فاستقوا
بســـفرتهم مـن آجـن المـاء اكـــدرا
راو البثـــا منـه عليـه اســـتقاؤنا
ورى مطـــايانا بـــه ان تغمـــرا

عندما رآه مشغولا بسقاية خيله بترو شديد اضطروا الى شرب ماء متغير الطعم بسفرتهم ، ذلك لانهم غير قادرين على دفعه عن الماء الصافي .

ونراه احيانا يعود الى ادوات الورد من دلـو ورشاء وحوض(٥٢) فيجعل منها موضوعات لصوره مقارنا بها بعضا من احواله ومشاعره . ها هو يشبه في صورة منها الدمع في عينيه بالماء المسفوح من دلو ضخمة على بكرة . قال(٥٣) .

كأن عينـــي وقـد ســال السـليل بهـم
وعبـــرة مـا هـم لـو انهـم امـــم
غـرب علـى بكـرة او لـؤلـؤ قلـــق
في الســـلك خـان ربانـه النظـــم

هذه صورة للعين وهي ملأى بدموع تتساقط منها غزيرة رسمها الشاعر لتنبىء عن حالة وهـــو يراقب رحيل احبته . ولها في شعره صورة مضادة

تصيرهم يكرهونها من هر الشيء : كرهه . وعصل : كالحة موجة . ومضره : ملحة .
الجزل : ما غلظ من الحطب . والازل : الحبس . والجماعة : أن يجتمعوا في موضع واحد لا تخرج ابلهم الى الرعي فتنحر . ويحشونها : يوقدونها . النكل : الجبناء .

(٤٩) الديوان ص ٤٩ . الحكمـه : حديدة في اللجام تكون على انف الفرس وحنكه لتمنعه من مخالفة صاحبـه وهي تتخذ من الابق . والابق : حبل القنب .

(٥٠) الديوان ص ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٦٣ ، ٢٨٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢١
(٥١) الديوان ص ٢٦٠ والجبا : ما حول البئر والجمـــع اجباء . الســفره : الشـيء ياكلون عليه . الاجن : المتغير . ورى مطايانا ان تغمرا : اي نـقيها قليلا وانظر ايضا ص ٣٧ .
(٥٢) الديوان ص ٣٠ ، ٦٧ ، ٢٤٣ ، ٢٨١ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ .
(٥٣) الديوان ص ١٤٨ وما بعدها . والسـليل : واد . والاسم : بين القريب والبعيد .

حيث وصف جفاف مائها منها لطول السفر وقساوته . قال يصف اعين رواحله(٥٤) .

وكأن اعينهن من طول السرى
قلب نواكر ماؤهن منضب

فلقد مائل بين عيون الابل الغائرة ارهاقا بالآبار التي قلت مياهها او نضبت .

× × ×

واهتم الشاعر بطبيعة السكنى التي عاشها انسان عصره فرسم بعضا من الصور للخيمة العربية القديمة بأعمدتها وما حول ذلك من نؤى واثاث من ذلك قوله(٥٥) .

أثا في سفعا في معرض مرجل
ونؤيا كحوض الجد لم يتثلم

فالاثا في والمرجل والنؤى والاعمدة والخيمة والرماد الهامد المتلبد كلها عناصر للبيت العربي القديم (الخيمة) استعادها الشاعر ورسم لها صورا تعادل شعورا ما كان له وقتئذ .

وفي شعره ايضا صور لابنية اخرى كانت تبنى بالحجارة والطين كهذه الصورة لقصر مبوب شغل ببنائه بناؤون ماهرون . قال مشبها ناقته بهذا القصر(٥٦) .

وكأنها اذ قربت لقتودها
فدن تطوف به البناة مبوب

وهذا يدل على ان الشاعر راى مثل هذا القصر في بيئته القديمة ، فاناس تلك البيئة لم يكونوا جميعا بدوا رحلا وانما كان منهم المتحضرون الذين يقطنون المدن ويشيدون فيها الساكن والقصور او ان الشاعر كان ــ كغير من بعض شعراء الجاهلية ــ على علم بحضارة الغساسنة والمناذرة والفرس والروم وما كان لهم من قصور فخمة تركت ابعادا في النفس حتى باتت ترتسم في الشعر صورا تحمل انطباعات صاحبها .

(٥٤) الديوان ص ٢٧١ قلب : مفردها قليب وهو البئر . نواكر : قليلات الماء .
(٥٥) الديوان ص ٧ وانظر ايضا ص ٢١٩ . والاثاثي حجارة ثلاثة يوضع عليها المرجل . والمرجل : كل قدر يطبخ فيها . والسفعة : سواد تخلطه حمرة . والنؤى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لمنع دخول الماء . والجد : البئر .
(٥٦) القتود : جمع قتد وهو خشب الرحل . والفدن : القصر المشيد .

ومثل ذلك اداة السفر عنده ، فلم تكن الناقة هي تلك الاداة الوحيدة التي اهتم بها وانما اهتم ايضا بأداة سفر جديدة هي السفينة . ويبدو ان ابناء عصره عرفوا السفن بدقة(٥٧) .

يغشى الحداة بهم حمر الكثيب كما
يغشى السفائن موج اللجة المرك

وكهذه الصورة التي يستعيد فيها جهاد البحارة كي تظل السفينة مندفعة في سيرها القاصد(٥٨) .

يقطعن اجواز اسال الفلاة كما
يغشى النواتي فما راللج بالسفن

ومن الطريف حقا ان الشاعر لم يستمد صورة السفينة في ذهنه الا في وصفه للظعائن المرتحلات اللاتي جعل عبور رواحلهن والاراضي القاسية شبيها بعبور السفن امواج البحر العاتية . والحصيلة التي نخرج بها من جمع الظعائن الى مسار السكينة هي اهتمام الشاعر بالانسياب الهادىء وسط القسوة والصعب ، واذا تذكرنا اهتمامه بالسلام الانساني وتحويل قسوة الحروب الى الفه وانسجام قارئنا بين الصورة ومدلولها الحياتي عنده .

× × ×

واهتم بزينة القوم فاكثر من ذكر الثياب والالبسة التي كان الناس يتعاملون بها ويزدانون باشكالها المختلفة . والذي يبدو من صوره ان اليمن ومصر والشام من اهم البلدان التي كانت اقمشة الثياب تاتي منها ، فقد ذكر الثوب القبطي الذي ينسب الى مصر او الشام بقوله(٥٩) .

ليأتينك مني منطق قذع
باق كما دنس القبطية الودك

كما وصف البرود اليمنية المحسنة بقوله(٦٠) .

وابيض عار لوح متونه
على البيد كالسحل اليماني المبلج

(٥٧) الديوان ص ١٦٧ وانظر ايضا ص ١٤٨ .
(٥٨) الديوان ص ١١٨ الميل : القطعة من الارض مد البصر والجمع اميال . واجواز : اوساط . والنواتي : الملاحون والواحد : نوتي ويقال هم خدم السفينة . والغمار : الماء الكثير .
(٥٩) الديوان ص ١٨٣ القذع : القبيح . الودك : الدسم .
(٦٠) الديوان ص ٢٢٢ السحل : الثوب الابيض النقي من ثياب اليمن ينسج من القطن . المبلج : المحسن .

هذا وقد استعاد في شعره صورا لانواع مختلفة ومتعددة من البسة الناس في عصره امثال : الملاء ، والعباء ، والنقيبة ، والسربال[٦١] .

وقد اهتم بالوان الثياب فرسم صورا لما لونه ابيض واحمر ومخطط[٦٢] . كما اهتم بأصل القماش الذي ذكر منه الحرير ، والكتان الرازقي[٦٣] .

وقد افاد في صورة ايضا من الكيفية التي كانوا ينسجون بها ثيابهم قال مثلا في تصويره لذاته التي تملك قدرة رد الاساءة بأبلغ منها[٦٤] :

لذى الفضل من ذبيان عندي مودة
وحفظ ومن يلحم الى الشر انسج

ومن وسائل زينتهم الاخرى التي اهتم بها زهير السبيكة ، والقلادة ، والكحل ويظهر ان السبيكة عنده غير القلادة بالرغم من انهما يتخذان لتزيين عنق المرأة فالسبيكة ـ كما يبدو ـ معدن يسكب على شكل خيط مقوس . قال يصف قوس الصائد[٦٥] :

ملساء محدلة كان عتادها
نواحة نعت الكرام مشبب
كاقواء خلصاء القوس نبعه
مثل السبيكة اذ تمل وتشبب

فقد شبه في الصورة انحناء القوس بانحناء السبيكة بعد ان تحمى في النار وتعالج حتى اذا ما يردت اتخذت الشكل المقوس . اما القلادة فمؤلفة من حبات من اللؤلؤ تنظم بخيط فتعلق في العنق . قال يشبه تتابع تساقط الدمع من عينيه بتساقط حياتها من السلك[٦٦] .

كان عيني وقد سال السليل بهم
وعبرة ما عم لو انهم امم

غرب على بكرة او لؤلؤ فلق
في السلك خان به رباته النظم

واما الكحل فمن وسائل التجميل المفضلة للشاعر ذلك لانه كرر تصويره فقال في احدى صوره يصف عيني حبيبة[٦٧] :

وناظرين تطحران قذاهما
كانهما مكحولتان باثمد

وقال في صورة اخرى يصف ثغرا جميلا[٦٨]

ومؤشر حمش اللثات كانما
شركت منابته رضيض الاثمد

× × ×

ومن اشيائهم الهامة التي اعاد الشاعر رسم صورها مرارا . النار ، والحبل ، والمال . اما النار فقد استخدمها في مجال الكرم والشجاعة لكنه كان ينظر اليها في كل مجال من زاوية خاصة ، ففي مجال الكرم كان يجمعها الى القدر والموقد ويستخرج منها جميعا حالات تتناسب وسماحة الكرم ، قال يمدح سنان بن حارثة المرى[٦٩] :

نعم الفتى المرى انت اذا هم
حضروا لدى الحجرات نار الموقد

كان هذا هو الوجه السمح للنار لكن للنار وجها اخر مناقضا ، وقد افاد منه الشاعر في تشكيله صورا للحرب وما يتبعها من مظاهر القسوة البشرية ، فها هي الحرب تتلظى او تستعر كالنار الحارقة ، وها هم بنو سحيم بن غطفان (نار الغضا لمن اصطلاها) وها هو غبار المعركة يفور (كما فارت دواخن غرقد)[٧٠] .

ومن هذه الصور المتجهمة ايضا تشبيهة الحرب التي لاقاها حزم سنان المرى بنار يصلى بحرها الابطال[٧١] :

---

(٦١) الديوان ص ٥٧ ، ٧٧ ، ٢١٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٢ ، ٢٢٨ . والعباء : كساء من صوف مفتوح من قدام يلبس فوق الثياب . والنقيبة مثل السراويل : ثوب تلبسه المراة تحت ثوبها . والسربال : القميص .

(٦٢) الديوان ص ٩ ، ٥٧ ، ٢٢٨ .

(٦٣) الديوان ص ٧٧ ، ٢٢٨ .

(٦٤) الديوان ص ٢٢٤ واللحمة : ما نسج عرضا وهي خلاف السدى وهو ما مد من الخيوط طولا .

(٦٥) الديوان ص ٢٧٧ . ومحدلة : اعلاها أوسع من اسفلها. عتادها ، ويروى عدادها وهو صوتها . وخلصاء : لعلها خلساء اي سمراء في موضع النقويس . مل القوس بالنار : اي عالجه بها . وشبب : صار شاسبا اي يابسا .

(٦٦) الديوان ص ١٤٨ وما بعدها . والنظم : واحدها نظام وهو الخيط . وربانه : النساء اللواتي ينظمن .

(٦٧) الديوان ص ٢٢٦ . تطحران اي ترميان به . الانمد : الكحل .

(٦٨) الديوان ص ٢٦٩ . ومؤشر : ثغر فيه تحزيز . وحمش اللثاث : قليل اللحم دقيق وشركت : خالطت .

(٦٩) الديوان ص ٢٧٥ وما بعدها وانظر ايضا ص ٩١ .

(٧٠) الديوان ص ٢٥٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ . وغرقد : شجر له شوك .

(٧١) الديوان ص ٢٧٧ نجدة : شدة وشجاعة . الكماة : الاشداء . ولم يبلد : من البلادة اي يضعف . الشكة : السلاح اجمع . متمدد : اراد مستمدا .

واذا يلاقـــي نجـــدة معلومـــــة
يصلـى الكمـاة بحـــرها لم يبلـــد
لـــم يلقهـــا الا بشـــكة حـــازم
يخشـى الحـوادث عـازم مســـتعدد

فنار الحرب توقد بالسيوف والرماح وموقدها فتيان من طبعهم الشجاعة لا يضعفون . ولا يجبنون وهم يشعلونها ليحرقوا فيها عظام القوم من اعدائهم. هذا هو شأنهم دائما(٧٢) .

واما الحبل فالتفت منه الى مـالتين هامتين هما وظيفة الحبل وطبيعته . اما وظيفة الحبل وهي الجمع بين شيئين فلقد كانت تقوم في خياله وهـــو يتمثل الحب في احدى صوره حبلا تعلق به قلبه(٧٣):

ان الخليـط اجـــد البين فانفـرقـــا
وعلـق القلب من اســـماء ما علقـــــا

وكذلك وهو يتخيل الجوار في صورة ثانية حبـــلا يتمسك به(٧٤) :

هلا ســألت بنـي الصيـــداء كلهـــم
بأي حبـــل جـــوار كنت امتســـك

واما طبيعة الحبل وهي كونه قويا او واهيـا فقد تمثلت له وهو يصف حبه ، فايام الصفاء في الحب تعادل حبلا جـديدا متينـا كما في هـــذه الصورة(٧٥) :

صرفـت جـديد حبالهـــا اســـماء
ولقـــد يكـــون تواصـــل واخـــاء

لكن ايام الجفاء تعادل حبلا واهيا خلقا كما في قوله(٧٦) :

واخلفتك ابنـــة البكـــرى ما وعـــدت
فأصبح الحبـل منها واهيـــا خلقـــــا

واما المال فقد ذكر مصادره وانواعه ، الكنـز فشبه به المجد ثم الوديعة والديه او الفراسة التي كان « ينجمها قوم لقوم»(٧٧) واخيرا الارث الذي شبه به الحمد وجعله كالمال الذي يورثه الانسان بنيـــه فقال(٧٨) :

فلـو كان حمـد يخلـد الناس لـم يمت
ولكـن حمـــد النـــاس ليس بمخلـــــد
ولكـن فيـــه باقيـــات وراثـــــة
فأورث بنيـــك بعضهـــــا وتـزود

هذا وقد رسم صورا منفرقة لانواع اخـرى مختلفة من اشيائهم في ذلك الوقت ، كالقيد ؛ والسلم والرحا ، والقار ، والابرة ، والجلد ، والسيور ، والقدر والقدح(٧٩) وغير ذلك مما كان يراه في زمانهم وبيئتهم .

- ٢ -

الانســـان :

تقع صور المجال الانساني في المرتبة الثانية من منطقة الاهتمام عند زهير ، لكنه ـ مع ذلك ـ التفت الى هذا المجال كثيرا وشكل منه صورا تنـــاولت جوانب مختلفة منه .

واول الجوانب كان النموذج الانـــاني بشكل عام ، واقصد بالنموذج الانساني هنا الفرد الذي يتصرف في الحياة منطلقا من موقف شعوري او فكري ما ، ولابد لهذا النموذج من عنصرين اساسيين يؤلفان معا شخصيته الانسانية النموذجية . والعنصـــران هما :

القاعدة الشعورية او العاطفية التي ينطلق منها حافز السلوك . ثم السلوك الانساني نفسه الذي يتحقق بدافع ويسير الى هدف معين ، ولقد غطت صور الشاعر هذين العنصرين بشكل تكاملي بحيث تغدو الحدود الفاصلة بينهما قضية متشـــابكة متداخلة . ولكننا مع ذلك سنحاول تصنيف الصور وتوزيعها على الاثنين من مبدأ ان العاطفة الساكنة تؤلف قاعدة السلوك ، اما العاطفة الفاعلة المحركة المتبوعة بفعل ما فتحقيق للسلوك .

بناء على هذا نلاحظ ان صور القاعدة السلوكية مصروفة عنده الى الخوف والكراهية والحقد والطمع

---

(٧٢) انظر الديوان ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٧٣) الديوان ص ٢٣ وانفرق : انقطع . الخليط : المخالطة في الدار ويكون واحدا وجمعا .
(٧٤) الديوان ص ١٧٩ . بنو الصيداء : قوم من بني اسد وهم رهط الحارث بن ورقاء ، وكان قد اغار على ابل زهير واخذ عبده يسارا .
(٧٥) الديوان ص ٢٢٨ .
(٧٦) الديوان ص ٣٤ .
(٧٧) الديوان ص ١٧ ، ٢٧٩ ، ٢٢ ، ٢٦ .
(٧٨) الديوان ص ٢٢٦ .
(٧٩) الديوان ص ٥٢ ، ٣٠ ، ١٩ ، ٢٧٤ ، ٢١٢ ، ٢٣١ ، ٩١ ، ٧٨ .

والحزن والعزة[٨٠] وكذلك الذلة التي نجده يقرنها بالناقة كما في هذه الصورة[٨١] :

تهـــدى قـلائص دربـت عيديـــة
خوصـــا اضربهـــا الوجيـف المهـذب
حتى انطـوى بعـد الـدؤب ثميلهـــا
واذل منهـــا بالفـــلاة المـصعب

ان الذلة قد لحقت الجانب الصعب في هـذه الناقة بعد ان هد السير قواها وقلل من نشاطهـا وعنفوانها اللذين كانا لها مع بداية السفر . ومـن صور السلوك الانساني قول الشاعر[٨٢] :

فاعتـــم وافتخـــرت زواخـــره
بتهـــاول كتهـــاول الرقـــم

الذي يصور فيه منظرا لفعل المعتز بنفسه بعد ما اعطاه للنبات الاخضر وهو يبتهج فرحا بمنظره الجميل . وكذلك قوله[٨٣] :

تـــراه اذا مـــا جئتـــه متهلـــلا
كـأنك تعطيـــه الـــذي انت سائلـــه

الذي يصور فيه فرحة الانسان الكريم وهو يؤدي فعل الكرم ، فاساريره تنشرح للعطاء كمـــا تنشرح اسارير الاخذ للعطية . ومن السلوك ما هو دائم يتخذ شكل العادة كما في قوله يصف فعل الكرم عند ممدوحه[٨٤] :

وعـــود قومـــه هـــرم عليـــه
ومـــن عاداتـــه الخلـــق الكـــريم
كمـــا قـــد عـودهـــم ابـــوه
اذا ازمـــت بهـــم ســـنة ازوم

فهرم عود قومه على العطاء كما فعل ذلك ابوه من قبل ، حتى ان الكرم كان عندهما عادة تتبدى وقت الضيق .

ومن السلوك ايضا ما هو عارض كغلبة الند للند ، لقد استعاد هذه الغلبة وهو يصور الصراع بين الحق والباطل اذ قال[٨٥] :

وذى نعمـــه تمتهـــا وشـــكرتهـــا
وخصـــم يكـــاد يغلب الحـــق باطلـــه

فغلبة الباطل للحق عارضة قد تدوم فتـــرة لكنها لا تدوم ابدا . ومثل هذا الانتصار للمستنجد او خذلانه ، وعصيان الامر او طاعته ثم عيادة المريض وازعاج الناس والبكاء على الاحبة كما رسمت ذلك ابعاد صوره[٨٦] . ولعل ادل الصور خطابه للدهر الذي تمادى في جبروته وظلمه للناس كما قال[٨٧] :

يـا دهـــر قـد اكثـرت فجعتنـــا
بـــراتنـــا وقـــرعت في العظـــم
وســـلبتنـا مـــا لســـت معقبـــة
يـا دهـــر مـــا انصفت في الحكـــم
اجلـت صروفك عـن اخـــي ثقـــة
حـــامي الذمـــار مخالط الحـــزم

× × ×

ومن جوانب الانسان الاخرى حركته .

لقد رسم لها الشاعر مجموعة من الصـــور ليست بالقليلة اذا ما قيست بصور الانسان في جوانب اخرى والحركة اما ان تكون حركة القدمين كالاقبال والادبار في صورته الشعرية هذه[٨٨] :

ومرقبـــة عرفـــاء اوفيت مقصـــرا
لاســـتأنس الاشـــباح منهـــا وانظـــرا
علـى عجـــل مني غشـــاشـا وقد دنـا
ذرى الليـــل واحمـــر النهـــار وادبرا

فاقبال الليل وادبار النهار مستعار من حركة المسير للانسان ، وهي حركة اعطت الصورة بعدا معنويا عميقا كما منحتها سمة حية ونشاطا واضح التاثير .

---

(٨٠) الديوان ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ١٨٨ ، ١٧٥ ، ٢٧٩ ، ١٢٠ على الترتيب .
(٨١) الديوان ص ٣٧١ عيدية : منسوبة الى حي من اليمن . الوجيف : السير . وثميلها : ما بقى في جوفها من علف وماء .
(٨٢) الديوان ص ٢٧٣ والزواجر : ما طال من النبت والتف. وتهاوله : الوان زهره وشبه زهر النبات بنقوش الوشي وهي رقومه .
(٨٣) الديوان ص ١٤٢ .
(٨٤) الديوان ص ٢١١ ازمت : عضت .
(٨٥) الديوان ص ١٢٨ .
(٨٦) انظر الديوان ص ١٢٧ ، ٢١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٩ على الترتيب .
(٨٧) الديوان ص ٢٨٥ والسراة: الاشراف اسم جمع للسرى. اجلت : انكشفت والذمار كل ما يلزمك حفظه وحمايته.
(٨٨) الديوان ص ٦٢ ، وما بعدها . ومرقبة : هضبة . وعرفاء : طويلة العنق مشرفة . مقصرا : عشيا وغشاش : عجلة .

واما ان تكون الحركة لليدين كقذف البيوت بيابس الشجر او الخشب كما في هذه الصورة[٨٩] :

تاللـــه قـــد علمـت قيس اذا قـذفت
ريـح الشـــتاء بيـــوت الحـي بالعنـن

واما ان تكون حركة الفم والاسنان كقوله[٩٠] :

تلجلـــج مضغـــة فيهـــا انيض
اضلـت فهـــي تحـت الكشـــح داء

والحركة قد تكون هادئة كما مثلتها صورته التي نقل فيها حركة السائر مدفوعا بالمخافة والرجاء[٩١] :

وجـار ســـار معتمـــد الينـــا
اجاءتـــه المخافـــة والرجـــاء

وقد تكون سريعة خاطفة كهذه الصورة التي ينقل فيها سرعة انجاز يد الممدوح للعمل[٩٢] :

ولانـت تفـــرى مـــا خلقـت وبعـــ
ـض القـــوم يخلـــق ثـــم يفـــرى

× × ×

هذا واستعاد ايضا بعض الصور من حواس الانسان او ما هو مصروف اليها مباشرة وقد اكثر في هذا من الصور التي لها علاقة بحاسة النطق كما في هذه الصورة التي جعل فيها الوجوه تخبر عن القلوب قال[٩٣] :

متـى تـــك في صـــديق او عـــدو
تخبـــرك الوجـــوه عـــن القلـــوب

وهذه الصورة التي جعل فيها الذباب يتغنى وسط مرج اخضر شبيها بصوت شارب خمر تذكر احياءه فترنم بالغناء قال[٩٤] :

ومســتأســد بنـــدى كـــأن ذبابـــه
اخـــو الخمـــر هاجت حزنه فتذكـــرا

لكنه رسم صورا . اخرى موجهة الى حواس اخرى . مثال ذلك هذه الصورة الموجهة الى حاسة الذوق قال[٩٥] :

وقد كنت من سـلمى ســنينا ثمانيـــا
على خير امـــر مـــا يمـــر ومـــا يحلـــو

والتفت ايضا الى الجسد الانساني فاستعاد صورا لبعض اعضائه ، من ذلك وصف عام لجسد آدمي عار كما في هذه الصورة التي قارن فيها بين هذا الجسد والحمار الوحشي الذي سنه وجلا لونه استمرار رعيه واستقلاله في الخصب[٩٦] :

تربـع بالقنـــان وكـــل فـــج
طبـــاه الرعـــي منـــه والخـــلاء

فـــاض كـــأنه رجـــل ســـليب
علـــى عليـــاء ليـــس لـــه رداء

وايضا وصف عام لجسد بشرى يتشقق دما كما في هذه الصورة[٩٧] :

ســـعى ســـاعيا غيظ بن مـرة بعدمـــا
تبـزل مـــا بين العشـــيرة بالـــدم

ومن ذلك ايضا رسمه صورا لظهر الانسان وصدره الذي هو مكمن اسراره ثم وجهه الحسن ويده المتحركة وراسه في سواده وفي شمول الشيب له وعينه الباكية المطوى ورئته التي ان ارعدت دلت على خوف صاحبها وانامله التي ان اصفرت اعلنت اقتراب موته[٩٨] . ولقد كان في كل تلك الصور يستغل وظيفة العضو الجسدي في ايجاد الحيـــاة للصور المشكلة من ذلك العضو قال مثلا[٩٩] :

دفعت بمعـــروف من القـــول صـــائب
اذا مـــا اضـــل القـــائلين مفاصلـــه

فمفاصل الانسان لها وظيفة حيوية في جسمه فهي التي تعطي اعضاءه مرونة الحركة وفي سلامتها او تعطيلها تكمن قدرة او عدم قدرة الانسان على انجاز والعمل والحركة ومن هنا تكون هي النقطة

---

(٨٩) الديوان ص ١٢١ والمنن : جمع عنه وهي حظيرة من خشب حول البيت لترد منه الريح او لتحبس الابل .
(٩٠) الديوان ص ٨٢ ولجلجة المضغة : كثرة المضغ لها فلا تبتلع ولا تلقى . الكشح : الجنب .
(٩١) الديوان ص ٧٧ .
(٩٢) الديوان ص ٩٤ والخالق : الذي يقدر ويهيء . ويفري: يقد ويشق .
(٩٣) الديوان ص ٣٣٢ .
(٩٤) الديوان ص ٢٦٢ ومستاسد اي نبت كثر وطال . وقد سبقه الى رسم هذه الصورة عنترة حيث قال :
وخلا الذباب بها فليس ببـارح
غردا كفعل الشارب المترنـــم

(٩٥) الديوان ص ٩٦ .
(٩٦) الديوان ص ٦٦ ، ٧٠ والقنان : جبل لبني اسد . طباه اي دعاه ما فيه من الرعي وخلاؤ مـن الناس . وفج : طريـق والفـج : كل متسع . وسليب : عريان
(٩٧) الديوان ص ١٤ وتبزل : اي تشقق .
(٩٨) الديوان ص ٩٠ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، ٥٤٢ ، ٢٢ ، ١٠ ، ٢٢ ، ٢٩٧ .
(٩٩) الديوان ص ١٢٨ .

المركزية لاية فائدة متوخاة من اطراف الانسان . لقد افاد الشاعر من هذه المهمة لها واستغلها في مجال القول : فمن وقع قوله على المفصل ، وقع على الموضع الحساس لذلك فهو مصيب ومن اخطاه باعد بين القول والصواب .

وكان احيانا يرسم صورا للانسان في مرضه كما في قوله الذي يجعل فيه الحب كالداء(١٠٠) :

فصحوت عنها بعد حب داخل
والحب تشربه فؤادك داء

ومع المرض يذكر الشفاء. وقد استعاد صورته في قوله الذي جعل فيه الحلم دواء يشفي الانسان من جهله(١٠١) :

وان جنتهم الفيت حول بيوتهم
مجالس قد يشفى باحلامها الجهل

وهذا وقد استعاد في صور اخرى صحوة الانسان من غفلته فقال(١٠٢) :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله
وعرى افراس الصبا ورواحله

لكنه ايضا اهتم بموت الانسان واوجده في بعض اخر من الصور قال مثلا(١٠٣) :

لهم هوى من هوانا ما يقربنا
ماتت على قربه الاحشاء والكبد

لقد صدقت صور الرجل والمراة في شعر زهير فحوى القول بان الرجل في الشعر الجاهلي معنى والمراة صفة فصورة الرجل عند زهير تجمع الكرم والشجاعة ونبل المحتد وجميل الخلق كما في قوله مثلا(١٠٤) :

الم تر ابن سنان كيف فضله
ما يشتري فيه حمد الناس بالثمن
وحبسه نفسه في كل منزلة
يكرهها الجبناء الضاقة العطن

(١٠٠) الديوان ص ٣٣٩ .
(١٠١) الديوان ص ١١٣ .
(١٠٢) الديوان ص ١٢٤ .
(١٠٣) الديوان ص ٢٧٩ وانظر ايضا ص ١٤١ .
(١٠٤) الديوان ص ١٢٠ ـ ١٢٣ والضاقة : جمع ضيق . والعطن : مبرك الابل ويقال للبخيل انه ضيق العطن . والمتن : جمع عنه وهي الحظيرة : وخب : جرى . والسفير: ما انحت من الشجر تسوقه الرياح والبطن: النهم . والطبن : الفطنة والعلم .

حيث ترى الخيل بالابطال عابسة
ينهضن بالهندوانيات والجنن
تالله قد علمت قيس اذا قذفت
ريح الشتاء بيوت الحي بالعنن
ان نعم معترك الحي الجياع اذا
خب السفير ومأوى البائس البطن
ومن يحارب يجده غير مضطهد
يربى على بضة الاعداء بالطبن
هناك ربك ما اعطاك من حسن
وحيثما يك امر صالح فكن

فالشجاعة حين توجب الشجاعة ، والكرم حيث يطلب الكرم ؛ ثم العلم الذي يرتفع به صاحبه فوق ضغائن الاعداء . كلها قيم جميلة واخلاق صالحة ورثت ابن سنان ـ ممدوح الشاعر ـ الحمد والمجد في المجتمع والحياة . وهذا اقصى غاية يطمح الى تحقيقها كل رجل مثال في ذلك الوقت .

اما المراة فهي في شعر زهير جميلة الهيئة والصورة دائما . لقد وصف جيدها فقال مشبها اياه بعنق ظبي جميل ممدود لتناول اوراق الشجر(١٠٥) .

اذ تستبيك بجيد آدم عاقد
يقرو طلوح الانعمين فشمهمد

ووصف طيب ريقها مشبها اياه برائحة الخمر المعتق(١٠٦) :

كان ريقها بعد الكرى اغتبقت
من طيب الراح لما يمد ان عتقا

ووصف مقلتيها فشبهها بمقلتي مهاة في شوادهما وملاحتها فشبهها بالدر في نقاوته قال(١٠٧)

وامـا المقلتان فمن مهاة
وللدر الملاحة والنقاء

(١٠٥) الديوان ص ٢٦٩ والآدم من الظباء : الذي ليس بخالص البياض . والعاقد الذي يعقد عنقه وبلوبها ويقرو : يتتبع . والطلح : شجر . والانعمين وشمهمد : موضعان ؟
(١٠٦) الديوان ص ٢٥ وقوله : لما يعد ان عتقا : اي لم يتجاوز ان يصير عتيقا .
(١٠٧) الديوان ص ٦٢ .

لقد جمعت هذه الفتاة الى جمال الشكل نعيم العيش فغدت نعيما للعيون كما قال[١٠٨] :

خـــــود منعمـــة انيـــق عيشـــها
فيهـــــا لعينيـــــك مكـــاذ وبهـــــاء

هذه هي صورة المراة كما بدت في شعر زهير ، انها مثالية الجمال والبهاء . لكن سؤالا يظل يلح في عقلية الدارس لهذه المراة في شعر هذا الشاعر وغيره من الشعراء الجاهليين هل تمداد الاوصاف الجمالية السابقة تدل على مجرد رسم صورة للمراة المعشوقة ام ان وراء ذلك الرسم ابعادا رمزية عميقة ؟

ان محاولتي الاجابة عن هذا السؤال تأتي من ادراك الابعاد التي لامستها وانا احلل شعر زهير ، فالمراة عنده وان البست لبوسا زاهي الشـــكل تنصرف دائما الى التعبير عن معنى كبير جدا وعميق جدا ، والذي يحدده عادة ليس البيت الذي يحوى صورا جزئية محددة الدلالة وانما السياق بمجموع احداثه وعلاقاته المتشابكة .

ففي دراسة للبنية الاجتماعية من خلال معلقة زهير[١٠٩] . تبين لي ان المراة في الاطلال ــ وهي ام اوفى ــ قد تكون رمزا للقوة التي يسطت نفوذهـا حتى اذا لم يعد هناك قوة تجابهها انشغلت بتدمير نفسها . كما تبين لي ايضا ان المراة في الظعائن تؤلف دلالة مناقضة ، انها قد تكون رمزا للمجتمع المسالم الذي يتمنى الشـــاعر ان يكـون بديلا عن مجتمع ام اوفى المدمر .

ولقد قامت العلاقة بين المراة والرجل على اساس الوظيفة التي ارتبطت بصفة كل منهما فالرجل هو صاحب الحركة والنشاط والفعل خارج البيت اما هي فخبيئة بيتها تنتظر من يخطبها[١١٠] .

ومـــا ادرى وســـوف اخـــــال ادرى
اقـــــــوم آل حصـــن ام نســـــــاء
فـــــان تكـــن النســـــاء مخبـــــآت
فحـــق لكـــل محصنـــــة هـــــداء

والمراة تعرف جيدا طريقها الى قلب الرجل ، انها تبرز له بصفة الجمالية التي تأسره فيتعلق بها تعلق العاشق المشتاق[١١١] :

قامت تبـدي بذى ضـــال لتحزننـــــي
ولا محالـــة ان يشـــتاق مـــن عشـــقا
بجيـــد معـــزلة ادمـــــاء خاذلـــــة
مـــن الظبـــاء تراعـــى شـــادنا خرقا

وهي ايضا تعرف كيف تحافظ على تعلقه بها، الماطلة والسلبية المصطنعة وسيلتان لابقاء عواطفه مشبوبة تدفعه لذكراها وعدم سلوها دائما[١١٢] :

وكنـــت اذا جئـــت يومـــا لحاجـــة
مضيت واجمت حـــاجة الغـــد مـــا تخلو
وكـــل محـــب اعقـــب النـــأى لبـــــه
ســـلو فؤاد غير لبـك مـــا يســـلو

وهكذا تظل العلاقة بين المراة والرجل حيوية متجددة ذلك لان الطبيعة الانسانية لكل منهما تهديه الى التصرف الذي يحتاجه نده .

ومن ذلك حرص المراة الطبيعي على المال . وتبذير الرجل اياه ابتغاء الحمد والثناء . لقد ابرز الشاعر هاتين الطبيعتين المختلفتين في هذا المشهد الجدلي المعبر[١١٣] :

بكـــرت عليـــه غـدوة فوجدتـــــه
قعـــودا لـــديه بالصريـــم عواذلـــــه
يفديتـــه طـــورا وطـــورا يلمنـــــه
راعيـــــا فمـــــا يدرين اين مخاتلـــه
فاعـرضن منـــه عـــن كريـــم مـــرزأ
جمـــوع على الامر الذي هـــو فاعلـــــه

لكن الارادة القوية المدربة التي كانت لهـــذا الكريم جعلته ينتصر على كل محاولة من جانب المراة

ـ ٣ ـ

الحيـــــوان

اهتم الشاعر بالاليف من الحيوان وخص بهذا الاهتمام الابل والخيل والكلاب . اما الابل فقـــد اخذت الناقة منها اكثر ذلك الاهتمام . لقد اتخذها

---

(١٠٨) الديوان ص ٣٢٩ الخود : الحسنة الخلق . مكلا : منظر . بهاء : حسن وروعة .
(١٠٩) عنوانه « معلقة زهير والبنية الاجتماعية في العصر الجاهلي » وقد ينشر قريبا .
(١١٠) الديوان ص ٧٣ والهداء : الزوج .
(١١١) الديوان ص ٢٣ ، ٤٤ بذى ضال : موضع به ضال وهو السدر البرى .
(١١٢) الديوان ص ٩٧ .
(١١٣) الديوان ص ١٤٠ ، ١٤١ والصريمة : جمع صريمة وهي قطعة من الرمل . ويختل : يخدع .

وسيلة رحلته ورسم لها صورا كثيرة تدل كلها على التميز ، فهي قوية نشيطة سريعة سرعة دلو انقطع رشاؤه فهوى في البئر لا يعيق سرعته عائق[١١٤] .

ولهذا كان يعادل بينها وبين حيوانات اخرى عرفت فيها مثل هذه الصفات فهي تشبه في القوة فحلا شديدا[١١٥] :

فوقعت بين قتود عنس ضامر
لحاظة طفل العشي سناد
وكأنها بعد الكلال عشية
قهب الاهاب ملمع بسواد

او قطاة لاحقها صقر فدفعها الخوف الى الاسراع ، او حمار الوحش طرده الرماه ، او فرس الاخدري المعروف بسرعته[١١٦] ، او ذكر النعام المندفع فوق طريق واضح المعالم[١١٧] :

مثل النعام اذا هيجتها اندفعت
على لواجب بيض بينها الشرك

وهي في صلابتها كالجبل من الرمل او القصر العظيم الذي شيده بناة ماهرون[١١٨] . هذا وقد استعاد في تصويره للناقة الجانب النافع منها . لقد استعاد نتاجها وهو يصف الحرب ، قال في احدى صوره[١١٩] :

فتعرككم عرك الرحا بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

وقال في اخرى[١٢٠] :

اذا لقحت حرب عوان مضرة
ضروس تهر الناس انيابها عصل

ولكنه حول انظار الناس من التفاؤل بهذا النتاج الى التشاؤم لانه اتخذه مثلا على نتاج الشر لا الخير .

لقد شكلت صوره للناقة الجزء الاكبر من اهتمامه بالابل ، فهو لم يصرف الاقسطا يسيرا من هذا الاهتمام للجمل . ثم انه بستعيد ـ وهو يرسم صورة الجمل ـ الاوصاف السابقة للناقة تقريبا ، قال في جمله[١٢١] :

وخرق تهلك الارواح فيه
بعيد الغور مشتبه المتان
زجرت عليه والحيات مذلى
نبيل الجوز اتلع تيحان
شديد مغارز الاضلاع جلسا
عريض الصدر مضطرب الجران
يشيح على الطريق فيعتليه
براكبه عليه نيسبان

فجمله شديد جريء عبر به صاحبه ارضا متشابهة المخارج ، مخيفة الانحاء فخرج منها منتصرا يهزا بكل ما فيها من صعاب .

اما الخيل فكالابل في خيال الشاعر ، لقد شبه فرسه بالناقة وجعله مثلها في السرعة . كان مثلها شبيها بالثور الوحشي تطارده كلاب الصائدين[١٢٢] :

قطعت بملبون كأن جلاله
نضت عن اديم مسه الطل احمرا
كشاة الكناس الاعفر انفرجت له
كلاب رآها من بعيد فاحضرا

وعلى الرغم من تداخل وظائف الخيل والابل في خيال الشاعر وفكره الا اننا نلاحظ ان صورة الخيل يكثر ورودها في مجال الحرب كما في قوله[١٢٣]

اذا ما سمعنا صارخا معجت بنا
الى صوته ورق المراكل ضمر

---

(١١٤) الديوان ص ١١٤ .
(١١٥) الديوان ص ٢٢٢ ومابعدها والقتود : احناء الرحل. ظل العشي : قبيل العشي وسنان : مشرفة . قهب الاهاب : ثور ابيض الجلد . والكلال : الاعياء
(١١٦) الديوان ص ١٧١ وما بعدها ، ٢٧٠ .
(١١٧) الديوان ص ١٦٨ واللاحب : الطريق البين .
(١١٨) الديوان ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .
(١١٩) الديوان ص ١٩٠ .
(١٢٠) الديوان ص ١٠٣ .

(١٢١) الديوان ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢ والخرق : البرية . مشتبه : مختلط . مذلى : ضجره من شدة الحر ونبيل : جمل . وجوزه : وسطه . واتلع : طويل العنق . والتيحان من الابل : النشيط والجلسى منها : الشديد . النيسبان : الواحد نسيب وهو حجرة النمل ويقال الطريق .
(١٢٢) الديوان ص ٢٦٤ ملبون : فرس يسقى اللبن . نضت : سقطت وانكشفت . اديم : جلد . والطل: المطر . كشاة الناس : يعني ثورا . انفرجت له : انقضت عليه . والاعفر : لون التراب .
(١٢٣) الديوان ص ٢١٥ معجت مرت مرورا سهلا . المراكل: مواضع الركل .

اما صورة الناقة فيكثر ورودها في مجال الرحلة[١٢٤] :

هل تبلغني الى الاخيار ناجية
تخدى كوخد ظليم خاضب زعر

واعتقد ان هذا قد جاء الشاعر من الوظيفة الفعلية التي اقترنت بكل من الابل والخيل في حياة ذلك العصر .

اما الكلاب فقد اهتم بتصويرها في مشاهد الصيد وهي عنده سريعة العدو ضامرة تجوع ليكون ادعى لها في طلب الطريدة . وقال يصف هجومها على الثور[١٢٥] :

فصبحته كلاب شدها خطف
وقانص لا ترى في فعله خرقا
زرق العيون طواها حسن صنعته
مجوعات كما تطوى بها الخرقا

ان صورتها هنا تعادل صورة الانسان العاجز الذي يسلم زمام امره احدا اخر يستغل قدراته ويوجهها كيفما يهوى . وليس ببعيد ان يكون هذا المعنى قد اقترن بصور الكلاب الصائدة في شعر زهير كله . ولعل هذه الصورة الكريهة لها هي التي املت على زهير تفضيلها دائما في مشاهد الصيد .

× × ×

ورسم الشاعر للاسد من الحيوان البري صورا شتى كان يعادل فيها بينه وبين ممدوحيه وكمثال على هذا ناخذ قوله في مديح هرم بن سنان[١٢٦] :

ليث بعثر يصطاد الرجال اذا
ما الليث كذب عن اقرانه صدقا

وكان يستفيد من دوافع الاسد في الشجاعة والعنفوان اذ كان يجعله مطفلا . وكونه مطفلا يعني انه مسؤول عن اطعام اطفاله وتوفير الامان لهم . وهذان المطلبان يجعلانه مدفوعا للافتراس والعنفوان فيه . قال في مدح هرم[١٢٧] :

كليث ابي شبلين يحمي عرينه
اذا هو لاقى نجدة لم يمرد

وكان يستعيد صورا للظبي والمها في مجال وصفه جمال محبوبته ، وكان يختار منهما جمال العنق والعينين ليعادل بذلك عنق فتاته وعينيها . قال مثلا[١٢٨] :

واذكر سلمى في الزمان الذي مضى
كعيناء ترتاد الاسرة عوهج

كما كان يستعيد صورا للنعام في مجال وصفه سرعة ناقته خاصة ، وغالبا ما كان يختار من النعام ذكره ـ الظليم ـ . قال مثلا[١٢٩] :

كأن الرحل منها فوق صعل
من الظلمان جؤجؤه هواء

ومن الحيوان البري الذي اهتم بتصويره الحمار الوحشي وذلك ليقارن بين سرعته وهو مطرد وسرعة ناقته . لقد جمل ناقته في احدى الصور[١٣٠]

كمصلصل يعدو على بيدانة
حقباء من حمر القنان مشرد

ولقد ابرز في صوره للحمار الوحشي حرص هذا الحمار الشديد على اتانه لقد فاق حرصه عليها حرص الانسان على ما ولي من امر[١٣١] :

فليس بغافل عنها مضيع
رعيته اذا غفل الرعاء

ولقد كان هذا الحمار يعد نفسه مسؤولا عن حمايتها وتسليمها من سهام الرماة الذين يلاحقونها مما ولذلك جعله زهير يمتلك زمام امرها فهو الذي يختار لها الطريق او المكان الذي تسلك[١٣٢] :

باتا وباتت ليلة سمارة
حتى اذا تلع النهار من العنق

---

(١٢٤) الديوان ص ٣١٦ وناجية : ناقة سريعة وظليم : نعام وزعر : نشيط .
(١٢٥) الديوان ص ٤٦ وما بعدها . وخطف : سريع . وشدها . طواها : هزلها .
(١٢٦) الديوان ص ٥٤ وعثر : اسم مكان في اليمن .
(١٢٧) الديوان ص ٢٢٢ وانظر ص ٩٤ ولم يعرد : لم يفر .
(١٢٨) الديوان ص ٢٢١ وانظر ايضا ص ٢٦٩ ، ٢٤ ، ٦١ ، ١٨٤ والاسرة : بطون الارض وعوهج : طويلة العنق والعينين ؛ واسعة الفين .
(١٢٩) الديوان ص ٦٢ وانظر . ٢٤ ، ١٦٨ ، ٢٥٨ ، ٢١٦ وجؤجؤه هواء : فزع خائف وهذا ادعى لسرعته .
(١٣٠) الديوان ص ٢٧٠ والمصلصل : هو العير للحمار ـ بيدانة : اتان وحشية . مشرد : مطرد .
(١٣١) الديوان ص ٢٧٣ والفرقد : ولدها .
(١٣٢) الديوان ص ١٧٣ وتلع : ارتفع النهار . العيون : عيون الماء . وني : فتر .

وراى العيـــون وقـدونى تقريبهـــا
ظمـــأ فخش بهـا خـــلال الفرقـــد

اليس في هذا تذكير للدور الانساني الـــذي يتخذه او من الواجب ان يتخذه الرجل تجاه انثاه ؟

واهتم بالثور الوحشي ايضا فكان يستعيد صورته وهو هارب مسرع يطارده الصائدون مع كلابهم مقارنا نشاطه وسرعته في هذه الحال بنشاط ناقته وسرعتها(١٣٣) :

كـأن كـورى وانســـاعي وميترتـــي
كسـوتهن مشـــبا ناشـــطا لهقـــا

وقد شبه ناقته في صور اخرى ببقرة وحشية فريدة لها وليد ترعاه(١٣٤) :

تنجـــو كذلـــك او نجـــاء فريـــدة
ظلـت تتبـــع مرتعـــا بالفرقـــد

وقد ابرزت صوره للبقرة الوحشية حرصها على وليدها ومراقبتها المستمرة له . والشاعر يرى ضرورة هذا الحرص وهذه المراقبة لان اية غفلة من الام في مجتمع الغاب قد تعرض الوليد للهلاك وهذا ما حدث في احدى صوره(١٣٥) :

بينـــا تراعيـــه بكـــل خميلـــة
يجـــري عليهـا الطـل ظاهرهـــا نـــد
غفلت فخالفهـا الســـباع فلـم تجـــد
الا الاهـــاب تركنـــه بالمرقـــد

هذه عاقبة الغفلة من الام . اليس هذا الحال مشابها للامومة الانسانية ؟ اليس فيه توجيه لهذه الام الانسانية في مجتمع الشاعر ؟ .

واستعاد من صور الحيوان البري صـورة الذئب فشبه اهتزاز السيف باهتزاز جسمه وهو مسرع(١٣٦) :

صـدق اذا مـا اهتز ارعش متنـــه
عســـلان ذئب الردهـــة المســـتورد

واما من الطير فاهتم بالصقر والقطاة وغالبا ما كان يجمعهما في مشهد صيد لان تصويره لهما كان يأتيه اساسا من تشبيهه ناقته او فرسه بقطاة سريعة، ولكي تكون في اقصى سرعة لها يجعلها مطاردة من صقر جارح(١٣٧) :

كأنهـــا مـن قطـــا مـران جانئـــة
فالجـــد منها امام الـــرب والـــرع
مـــا الطرف اســـرع منها حين يرعبهـــا
جـــد المرجـــي فـــلا يأس ولا طمـــع

وهي تخرج من المعركة منتصرة دائما ، وهذا توجيه فكري من الشاعر حتما ، كأنه اراد ان القوة التي يمثلها الصقر معرضة للفشل اما الضعف الذي تمثله القطا فقد تكون له الغلبة اذا احسن توجيهه فارفد بالذكاء واستغلال ما في الطبيعة : فالقطـاة كانت تعتمد على نواح تكفل لها النجاة ؟ كانت تفري الصقر بملاحقتها وتوقعه دائما بين اليأس والطمع حتى تنهك قواه وتتركه يتهاوى ـ احيانا ـ فيلحقه هو الموت لا هي(١٣٨) .

تزل عنهـــا ودامـى راس مرقبـــة
كمنصب المتر دمـــى راسه النســـك

وفي شعر زهير ابضا بعض الصور المتفرقـة لطيور اخرى كالحبارى والحمام والغراب وطائر الصرد(١٣٩) كان يناسب بينها وبين ما يبتغي التعبير عنه .

ومن المهم جدا ادراك ان حياة الحيوان كانت لدى الشاعر مجالا حيويا لعرض مواقفه وآرائه من حياة البشر داخل المجتمع الجاهلي الذي كان يعيشه، ولقد حاولنا الاشارة الى بعض ذلك اثناء العرض لكننا مع هذا نشعر ان قيما انسانية اخرى لا تزال مضمرة وقابلة للكشف ، خاصة اذا ما درست صور الحيوان عند الشاعر في اطار شمولي ينظر فيه الى هذه الصور خلال النسق الشعري الخاص الـذي جاءت فيه من ناحية وخلال الرؤية المتكاملة للشاعر التي تبرز في مجموع شعره بشكل متعاضد متحد من

---

(١٣٢) الديوان ص (٤٢ ـ ٤٧) الكـور : الرحل . وانساعه : التي يشتد بها رحله . والميثره : حشية صغيرة يضعها الراكب تحته . المشب : المسن ، الناشط : الثور نشط من بلد الى بلد . اللهق : البياض .
(١٣٤) الديوان ص ٢٧٢ والفرقد : ولدها .
(١٣٥) الديوان ص ٢٧٢ وما بعدها . الاهاب : الجلد .
(١٣٦) الديوان ص ٢٧٨ صدق : صلب . وعسلان : اضطراب . والردهه : النقره فيها ماء .
(١٣٧) الديوان ص ٢٣٩ ، ٢٤٤ . مران : ارض . جانئه : تدني صدرها من الارض منعطفة للماء . جد المرجي : جد الصقر .
(١٣٨) الديوان ص ١٧٨ وانظر المشهد ابتداء من ص ١٦٩. اوفى راس : اي سقط الصقر على راس مرقبة والمتر : الذي يذبح في رجب . والنسك : جمع نسيكة وهو ما يذبح عليه .
(١٣٩) الديوان ص ٢٤٤ ، ٢٤٠ ، ٤١ ، ٢٥٤ .

ناحية اخرى . لقد راينا ما يشير الى حماية الرجل للانثى من خلال حرص الحمار الوحشي على اتانه. والى الامومة البشرية من خلال علاقة البقرة بابنها ، والى احتمال انتصار الضعيف الذكي على القوى المغرور من خلال علاقة القطاة بالصقر ، لكن ذلك يظل جزءا من رؤية ابعد واكثر تنوعا كان الشاعر يمتلكها ويستخدمها في اشكال ايحائية مختلفة . وقد تستطيع التوصل الى ادراك ذلك بدراسة تكاملية توحيدية للعلاقات المتشابكة داخل قصائده الشعرية كلها .

— ٤ —

الطبيعة :

واحتلت الطبيعة المرتبة الرابعة في خياله ، وابرز مظاهرها التي اهتم بها المطر والسحاب . لقد عادل مرارا بينهما وبين نعمة ممدوحه او كرمه . فالبر عموما يماثل عنده (الغيث نبته امر)[١٤٠] والممدوح (يداه غمامة) حتى ان الناس (استمطروا الخير من كفيه) فمنهما يتروى القريب والبعيد[١٤١].

وكان يعادل في صور اخرى متفرقة بين السحاب والارض في اشكال التضاريس والالوان التي لهما .

ويممت عرض الفلاة كانها
غراء من قطع السحاب الاقهد[١٤٢]

وبين صوت الحركة للصائد وصوت المطر يتخلل ورق الشجر والنبات[١٤٣] :

فاتبع آثار الشياة وليدنا
كشؤ بوب غيث يحفش الاكم وابله

ومن اللافت للانتباه انه يطلق لفظة السماء في كثير من صوره على المطر كما في قوله[١٤٤] :

فادركته سماء بينها خلل
تروى الثرى وتسيل الصفصف القرقا

وكان في صور اخرى يجمع الى الماء الذي يجمع او يسيل فيه ويعادل بين ذلك واحوال الناس ومجالات حياتهم فقد استعاد صورة حومة الماء وهو يصف كثرة الناس المتحركين في الوادي بمسيل الماء الغزير ، كما جعل المال الذي ياخذه العفاة من ممدوحه نهرا يجري في تلادهم[١٤٥] . هذا وشبه في صورة اخرى الدرع المنسوج بماء غدير تهب عليه ريح خفيفة حيث قال[١٤٦] :

ومفاضة كالنهي تنسجه الصبا
بيضاء كفت فضلها بمهند

كما جعل في صورة ثانية الكريم بحرا يفيض ماؤه على الناس[١٤٧] :

ينزعن امة اقوام لذى كرم
بحر يفيض على العافين اذ عدموا

اما الشجر فقد رسم له صورا عدة ، واهم ما نلاحظه في هذه الصور معادلته الانسان في اصله وفروعه بالشجر المتماثل الانحاء ، لقد فعل ذلك وهو يمجد نسب ممدوحه في هذه الصورة[١٤٨] :

فما كان من خير اتوه فانما
توارثه آباء ابائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه
وتغرس الا في منابتها النخل

كما كرر ذلك وهو يصف فتاته الجميلة حيث قال[١٤٩] :

وكان يوم الرحيل وقد بدا
منها البنان يزينه الحناء
بردية في الغيل يغذو اصلها
ظل اذا تلع النهار وماء

فبنان فتاته شبيه بالبردية الخضراء في طرواتها ورطوبتها . ان المعادلة بين الشجرة والانسان — كما نرى — عنصر اساسي من عناصر تصوير الشاعر هنا .

---

(١٤٠) الديوان ص ٢١٥ ونبت امر : كثير .
(١٤١) الديوان ص ٢٣٢ ، ١٣٩ ، ٢٨١ .
(١٤٢) الديوان ص ٢٧٥ وغراء : بيضاء . الاقهد : الابيض
(١٤٣) الديوان ص ١٢٥ والشياة : البلر .
(١٤٤) الديوان ص ٤٥ سماء : مطر . الصفصف : المستوى من الارض . القرق : الاملس وانظر ٥٦ .

(١٤٥) الديوان ص ٢١٠ ، ١٤٧ ، ١٧ .
(١٤٦) الديوان ص ٢٧٨ .
(١٤٧) الديوان ص ١٦٠ وانظر ايضا ص ٢١٩ .
(١٤٨) الديوان ص ١١٥ والخطي : الرماح . والوشيج : القنا واحدها وشيجة وانظر ٢١٧ .
(١٤٩) الديوان ص ٢٤٠ والبردية : البردى الاخضر ، والغيل : الاجمة . تلع : ارتفع .

وقد استعاد صورا لانواع من الشجر كانت لها اهمية في عصر الشاعر كالنخل والدوم(١٥٠) واهتم بالنبات الاخضر والارض الممرعة فرسم منهما صورا ملائمة ، اذ قد يكون النبات خصبا جميلا كما في هذه الصورة(١٥١) :

خـــود منعمـــــة انيـــق عيشهـــــا
فيهـــا لعينيك مكـــلاء وبهـــــاء

وقد يكون اخضر ولكنه مستكره قبيح يبعث الشؤم لمن يجربه كما في الصورة التالية التي يجسد فيها الحرب ويلاتها ويشبهها بمثل هذا النبات(١٥٢)

فقضـوا منـــايا بينهـم ثم اصـــدروا
الـى كـــلا مســـتوبل متوخـــم

ومن الطبيعة نوع الارض التي شغل الشاعر بوصفها او استعادة صورها ، وهي الارض التـي عاش فوقها وسلك مسالكها لذلك جاء تصويره لها تصوير خبير بها . ويظهر هذا من كثرة الاسماء التي اوردها في شعره فبعض تلك الارض كان غـــورا وبعضها كان مرتفعا عاليا وبعضها ارض رمليـــة واخرى صخرية ، كما ان جزءا منها كان وعريـــا بينما كان جزء اخر سهليا(١٥٣) .

وهي احوال مختلفة متضادة تذكرنا جيـــدا باحوال الحياة المتناقضة فما ان يسهل امرها حتى تصعب وتقسو من جديد وهكذا .

والذي نلاحظه هنا ان الشاعر شغف بالجبل كثيرا حتى لقد شكلت صورة له مجموعة كبيرة نسبيا من ذلك تشبيهه الكتيبة المدافعة عن الثغر بجبل يلتف حوله رجال كثر قال(١٥٤) :

هـم ضربوا عـن فرجـــها بكتيبـــــه
كبيضاء حرس في طوائفهـــا الرجـــل

ولا يبتعد هذا الاهتمام بالجبل من منطقـــة التفاؤل والامل التي شكلت مواقف الشاعر من الحياة فارادته القوية هي التي كانت توحي له بانفراج كل امر مهما بدا قاسيا .

بقي من الطبيعة عند الشاعر صور متفرقـة كصورة القمر التي استعادها في مدحه هرما قال(١٥٥)

لـــو كنت مـن شيء ســـوى بشـــر
كنـت المنـــــير لليلـــــة البـــــدر

وكصور اخرى الليل والنهار ثم الخـــريف والشتاء والربيع من فصول السنة(١٥٦) .

اننا نشعر ان الشاعر قد استفاد من الاوضاع المتناقضة في الطبيعة ليماثل بينها وبين احوال الناس في زمانه وبخاصة تدخل المكان باوضاعه واحواله المتناقضة في مسائلهم وفرض نوع من الحياة والمشاعر عليهم .

لقد كانت صور الطبيعة بالنسبة للشـــاعر متنفسا جديدا يتوصل عن طريقه الى ابسط مواقف الفكرية والشمورية من الوجود .

— ٥ —

الثقافـــة :

ونصل مع الشاعر الى اخر مجالات صـــوره وهو المجال الثقافي ، وتعريف « الثقافة » مختلف عليه كثيرا لكننا سنعالجه من خلال علاقة الثقافـة بالمجتمع كما يتخيلها هوجين Hogbin : فاذا كان المجتمع مؤلفا من مجموعة منظمة من الكائنـــات البشرية التي تتميز بطريقة معينة للمعيشة تحدث مجموعة من العلاقات الاجتماعية فيما بينها فـــان الثقافة هي « محتوى هذه العلاقات »(١٥٧) . فالثقافة حسب فهمي لما سبق ، تكون هي القاعدة الخلقيـة والفكرية والمعرفية والمعلية التي يرتكز عليها سلوك الفرد الاجتماعي ومن ذلك الكتابة التي عرفها الناس وشاعت في زمانهم القديم ؛ ويبدو ان الشاعر كان

---

(١٥٠) الديوان ص ٢٩٤ ، ١١٩ والدوم : شجرة تشبه النخلة ولها ثمر .
(١٥١) الديوان ص ٢٢٩ وانظر ١٨٥ .
(١٥٢) الديوان ص ٢٤ مستوبل : وبيل ومتوخم : فيه مرض ،
(١٥٣) الديوان ص ٢٧٠ ، ١٨٥ ، ٢٨٧ ، ١٤٤ ، ٢٤٥ ، ١١٠ .
(١٥٤) الديوان ص ١٠٧ والفرج : الموضع الذي يخاف منه العدو . وحرس : جبل وطوائفها نواحيها والرجل : الرجالة .
(١٥٥) الديوان ص ٩٥ .
(١٥٦) الديوان ص ٢٢٢ ، ٢٦٢ ، ١٥٢ .
(١٥٧) انظر الدكتور احمد ابو زيد : البناء الاجتماعي ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧٠ ج ١ \ ١٨١ هامش ١ .

معجبا بقدرة الانسان على ابتداعها لانه استعادها مرارا وهو يصور معالم الاطلال[١٥٨] :

لمن الديار غشيتها بالفدفد
كالوحي في حجر المسيب المخلد

ومن ذلك ايضا استعادته اخبار السلف وبخاصة بعض جوانب القصص الذي كان يشكل في خيال الناس قضية من قضاياهم المصيرية كقصة احمر ثمود او عاد الذي كان امثولة الشؤم عندهم قال عن الحرب[١٥٩] :

فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

ومن ذلك ما يشعرنا بزراعتهم ، كزراعة الحبوب[١٦٠] ، والنخيل . قال في احدى صوره يرسم لوحة حركية لنحت جذوع النخيل[١٦١] :

حتى اذا ما التقى الجمعان واختلفوا
ضربا كنحت جذوع النخل بالسفن
يغادر الفرن مصفرا انامله
يميل في الرمح ميل المائح الاسن

اما صناعاتهم فقد رسم منها صورة للحدادة نجمع فيها الحداد مع كوره قال :

بثوا خيولهم في كل معركة
كما تقاذف ضرب القين بالشرر

ومن العابهم نقل صورة للعب الاطفال بالخذروف حيث شبه حركات قوائم ناقته بحركته فقال[١٦٢]

وجدت فألفت بينهن وبينها
غبارا كما فارت دواخن غرقد
بملثمات كالخذاريف قوبلت
الى جوشن خافي الطريقة مسند

(١٥٨) الديوان ص ٢٦٨ والوحي : الكتاب ، المخلد : المقيم وانظر ايضا ص ١٢٦ ، ١٤٦ .
(١٥٩) الديوان ص ٢٠ واحمر هذا هو الذي عقر ناقة صالح عليه السلام .
(١٦٠) الديوان ص ٢١ .
(١٦١) الديوان ص ١٢٠ وما بعدها . السفن : الفاس العظيمة . مصفرا انامله : دنا موته فاصفرت انامله . المائح : من في البئر يملأ الدلاء المائح : من في اعلى البئر .
(١٦٢) الديوان ص ٢٢٠ والخذروف : شيء يدوره الصبيان بخيط فيسمع له دوي .

ومنها ايضا « مقلاء الوليد » الذي شبه به صلابة عيره[١٦٣] . ومن معارفهم التطبب بالعقاقير والاعشاب كما في هذه الصورة التي يبرز فيها الكحيل والقطران علاجا للجرب[١٦٤] :

ورايتها تكباء تحسب انها
ظليت بقار او كحيل معقد

ومن عاداتهم الدية وتقاسم الماء عندما يقل بحصاة تسمى (حصاة القسم) وقرى الضيف وضرب الايسار وتسنيح الطيور وادخال الايدي في عطر منشم للتحالف وايقاد النار للكرم او للحرب ورفع اللواء في المعارك . قال في نار الكرم[١٦٥] :

ومرهق النيران يحمد في الـ
ـلأواء غير ملعن القدر

ومن الطقوس الدينية التي صورها زيارتهم للاماكن المقدسة وحلاقة رؤوسهم عندها[١٦٧] :

فاقسمت جهدا بالمنازل من منى
وما سحقت فيه المقاديم والقمل

ثم تقديم الضحايا والقرابين لمعبوديهم فيها[١٦٨]

فزل عنها ووافى راس منقبة
كمنصب المتر دمى راسه النسك

ومن مجالات التعامل بينهم التداين الذي كان يشكل عندهم قاعدة للسلوك فبعضهم كان يشكل له التفكير في الدين عذابا والما شديدين كما في هذه الصورة[١٦٩] :

تطالعنا خيالات لسلمى
كما يتطلع الدين الغريم

(١٦٣) الديوان ص ٢٧٣ ومقلاء الوليد : العود الذي يضرب به الصبيان الفلة .
(١٦٤) الديوان ص ٢٧٤ ونكباء : منتكبة عن الطريق . والكحيل : الخضخاض الرقيق يخرج من عيني كالثفل وانظر ص ٨٢ .
(١٦٥) الديوان ص ٢٦ ، ١٧١ ، ٢٣٣ ، ٥٩ ، ١٥ .
(١٦٦) الديوان ص ٩١ ومرهق النيران : نغشى نيرانه ومنه غلام مراهق : قد دانى الادراك واللأواء : الشدة والضيق .
(١٦٧) الديوان ص ٩٦ وسحقت : حلقت والمقاديم : مقادم الراس ، والقمل : يريد الشعر الذي فيه القمل .
(١٦٨) الديوان ص ١٧٨ فزل عنها ، الحديث هنا عن صقر يطارد قطاة . المتر : الذبيحة في رجب وانظر هامش رقم ١٣٨ من هذا البحث .
(١٦٩) الديوان ص ٢٠٩ الغريم : المطلوب او الطالب .

لكن بعضهم كان يماطل ويحاول اغتصاب قيمة الدين الا اذا جوبه بالشر كما في هذه الصورة(١٧٠) :

ولا تكـــونن كأقـــوام علمتهـــم
يلـوون مـا عندهـم حتى اذا نهكـــوا
طابت نفوســـهم عـن حـق خصمهـــم
مخـافة الشـــر فارتدوا لمـا تركـــوا

(١٧٠) الديوان ص ١٨١ ما عندهم : يريد ما عندهم من دين . نهكوا : شتموا ، ارتدوا : رجعوا الى الحق.

لقد اعطت الصور الثقافية في شعر زهـــير ــ على قلتها ــ فكرة وافية عن البنية الداخلية التي كانت تؤلف القاعدة لكل سلوك فردي واجتماعي في عصره .

ولقد شكلت هذه الصور ايضا مع الصـــور السابقة الاخرى مجالات الحياة التي سبقت البعثة المحمدية بكل ابعادها الفكرية والشعورية والفعلية ولهذا استحقت مني هذا الاهتمام الذي ارجو ان يكون مثمرا .

WWW.ATTAWEEL.COM